الأستاذ الدكتور الناقد سعيد الطواب

مع اعزازي وتقديري لشخصك
واعمالك ودراساتك النقدية، خاصة
كتابك "صورة النوبة في القص المصري"
آملا أن ألتقي مع سيادتك
والتعرف عليك شخصيا عن قرب
وأنت تتمتع بالصحة والسعادة

١٥/٨/٢٠٠٦

بحـــر الــزين

روايات قصيرة

حســن نـــور

المؤلف : حسن نور
الكتاب : بحر الزين
الناشر : نادى القصة
لوحة الغلاف : أدهم وانلى
الطبعة الأولى : ٢٠٠١ م
رقم الإيداع : ٢٠٠١/٨٠٢١

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩


الكتاب
الفضى
نادى القصة

إهـــــداء

إلى روح الناقد الكبير

الأستاذ الدكتور على الراعى

تحية وتقديراً ووفاء على ما أولانا به من اهتمام

بحر الزين

مدت بصرها للمدى، فاصطدمت بالجبال تخنق البيوت القليلة المتناثرة فوق تلال تحيطها أراض صلدة واعرة، غطتها أحجار حرّقتها حرارة شمسنا الجنوبية القاسية لتحيل لونها إلى البنى الداكن، والمدقات تمتد من أبواب البيوت حتى تلتقى بأخرى تنتهى إلى الطريق الممتد فى استقامة بحذاء النهر حتى القرية المجاورة.

يرتد بصرها لتلتقى بالبقع الخضراء الراقدة تحت ظلال النخيل الواقعة بين النهر والجبل، فتخفف خضرتها من جهامة الطبيعة الموحشة، وإحساسها بالضيق الذى يأخذ بخناقها.. تشد الخطو نحو النهر كما اعتادت فى هذا الوقت من كل يوم، ما أن ترى صفحة الماء الرقراق الجارى نحو الشمال حتى تغمس قدميها فيه، فتحس ببرودته تدغدغ كيانها، فتعلو البسمة صفحة وجهها.. تنحنى عليه لتغترف غُرفتين من مياهه الباردة، تملأ فاها، تتجرعها فتحس بطراوة تسرى فى داخلها، فتهتف بعفوية: اللاااه، ثم تنظره طويلاً، وتخاطبه معاتبة: تروى عطشنا منذ الأزل، حتى وأنت تجرى أبداً نحو الشمال، فلماذا لا تتجه

شرقا فى مسارك لتروى أراضينا المنبسطة، وراء تلك الجبال، لينفجر من باطنها الخضرة وتغطيها، ويتناثر فوقها نخيل البلح، وتكثر الخضرة فتلبس قرانا منه ثوبها، وتستعيد طراوتها التى كانت لها ذات يوم بعيد..؟

نفضت رأسها بشدة وهى تردد لنفسها: إصحى يا شَلَوِّيه.. لا تذهبى للبعيد، ولا تدعي الخيال يضحك عليك، ثم ترتد إلى نفسها.. بعد فترة انشغلت بالصمت الذى يشمل كل ما يحيطها.. الدروب والدور والنهر، والفراغ الذى يشدها إلى قراره، فابتغت الحديث إلى النفس، دون أن تدرك أن الحزن ينتظرها هنالك..

آآه.. ذهب الزوج بعيداً يا شلويه، وتركك وحدك.. سافر، ركب رأسه ورحل، وسد أذنيه لتوسلاتك وذهب، ثم راحت تزعق عليه وكأنه يمشى بين الدور: يا بحر الزيـ يـ يـ ن..

تعال.. انقذنى من الضياع الذى يلفنى فى دوامته.. مرت أيام عديدة منذ سفرك، أخالها سنين طويلة، فليتك ترجع، ليتك ترجع..

وهكذا ظلت تناديه وتناجيه حتى مالت الشمس نحو الغروب، وألقت بأشعتها الحمراء الداكنة إلى ماء النهر فتوهج، وهبت النسمات الطويلة الطرية لتداعب الوجوه، وترطب الأجساد التى

أنهكها حر النهار القاسى، فاستدارت عائدة إلى دارها هرباً من غدر الليل.

يحتويها الحوش السماوى، تنفلت إلى الحجرات المواجهة للباب الكبير.. تتعلق عيناها بالشعاليب، بأطباق الخوص، بالأبراش الملونة، بصندوق فرحها الأبنوسى، بسرير العنجريب الذى ضم جسدها بجوار جسده لليال قليلة لم تكد تهنأ بها، حتى انفلت إلى البعيد. يتمثل لها بشراً سوياً فتناجيه: كيف هان عليك يا بحر الزين بيتك، وكيف هُنت عليك..؟ كيف أغوتك الغُربة الغريبة عليك.. اشتقت إليك فتعال لأراك.. أضنانى الشوق إليك، وانحلتنى الوحدة، كم هى قاسية يا بحر، ألم تحس بوحشتها..؟

تمتلىء عيناها بالدموع.. تنهنه وهى تنقل عينيها فيما حولها مرددة: كم جلسنا فى هذا الحوش لنشرب شاى العصر، هنا أمام المضيفة، بجوار المزيرة، وفى هذا الركن كنا نكوم البلح ليمتص أشعة الشمس، وأمام دارنا هذه شدت أصوات المغنين ليلة انتقالنا من بيت أبى، وهذه الدروب كم مشيناها، وتحت ظلال النخيل القليلة المتناثرة حول الدور سمعنا حكايات الجدات فى الليالى القمرية.. كُما كُما الله(1)

تسرح عيناها للبعيد، ثم ترنوان إلى الأرض التى عليها دارها، بالقرب من سفح الجبل، رجال النجع وشبابه ينقلون

الأحـجـار من الجـبل والطمى من الجـرف ليـخلطوه بالتبن، ويرسـمون فوق الأرض مـربعاً كـبيـراً، حددوا موقـع الدار التى سيبنونها لى ولك.. ريحان يبنى وادريس، وفتّاح ودهب يناولانهما الأحـجـار، وعـوض عـبدون يخلط الطمى بالتبن والنيل وجـعـفـر يناولانهـمـا إياه. وعند الظهيـرة ينتـهـون من بناء أول سـرِّيجـه (مدماك)، فـتنطلق الزغاريد وتخرج صوانى الغداء من البيوت القريبة وصوانى الشاى.

كان قرص القمر الفضى يطل عليها من عليائه، ينثر ضوءه فى جبنات الحوش، استـأنست به فـقـامت من رقـادها لما تأبى عليها النوم، تناولت علبة فارغة كانت ملقاه بجوار المزيرة، نقرت عليـها فـدوى وقع الأصـابع فـوق الصـفيح ممزقـاً صـمت الليل، يمتزج صوتها باللحن فى عذوبة آسرة، يتمدد عبر السكون لينسكب فى آذان النائمين فينتبهون:

تعال يا بحر وكفاك عنادا

تعال لتداوى جرحاً سبَّبه بعادُك

تعالى ليداعب النوم عينين أرّقهما الأرق

وإلا دعوت الشوق أن يصيبك بالأرق

فتعال وكفاك بعادا

تعال وكفاك عنادا

يعرفون صوتها.. إنها شلويه تناجي زوجها، لم يمر على سفره أيام لكنه أوحشها، يُسر الرجال لأنفسهم: يا لها من عاشقة ولهى، آه لو يكون لنا مثلها.

يخفت الصوت تدريجياً فيخالون أنفسهم يحلمون، لكنه حلم جميل، أحبوه فاستقر فى الذاكرة، أدركوا عمق الحب الذى تكنه لرجلها، وما تعانيه من آلام فراقه، وفى الصباح كان الكل يردد كلماتها ملحونة، منغمة:

فتعال وكفاك بعادا

فبعادك أضحى لى عذابا

تغمرها السعادة لما عرفت أن مناجاتها لزوجها تنتقل من نجع إلى نجع حتى اجتازت النجوع، وأيقنت أن الناس سيرددونها حتى تنتقل إلى أذنى بحر الزين فى غربته.. يسمعها فيرق لها قلبه ويخشع، ويستجيب لنداء الحب، فيسرع بالعودة ندمان أسفا على تلك الأيام التى أهدرها بعيداً عنها، ووقتها سوف تكبله بحبها فلا يفكر ثانية في الفكاك بعيدا عنها، سيطلب عفوها عن سفره إلى بلاد أكيد أكيد ليس كبلدهم، وناسها يختلفون عن ناسهم، وهكذا راحت تتحدث مع نفسها ولم تكن تعرف أن الليل كان يلملم أوصاله مؤذناً بالرحيل إلا بعد أن تناهى إلى سمعها صوت «أوادشيه» (الشيخ عوض) يرفع آذان

الفجر.. تنسكب كلماته فى أذنيها منغما، حلوا، رائقاً.. حى على الفلاااح.

تقوم إلى الديو-كا (حجرة الكانون) لتعد لنفسها شاى الصباح ثم تركض إلى الحظيرة وهى تحمل بين يديها سطل اللبن، لتركنه بجوار الباب، وتتجه إلى كوم ورق اللوبيا والبرسيم الجاف، لتلقى ببعضها أمام بقرتها الوحيدة، ثم تتقرفص بين أرجلها، وتروح أصابعها تملس ضرعها تحننها، قبل أن تضغط عليها بدربة فتجود بلبن حلو، سائغ شرابه.. ما تكاد تملأ وعاءها الكبير حتى يهل عليها الصبية من كل أرجاء النجع، كما تعودوا كل صباح... ترسلهم إليها أمهاتهم لتملأ لكل وعاءه لبنا، تماما كما كانت تفعل جدتها «زهرة البوب» وأمها «شايه حسين».

تتناثر سرسعاتهم حولها فتتذكر أياما كادت تخبو فى ذاكرتها، أيام أن كانت فى مثل أعمارهم، لما كانت تقف بينهم وبين أمهاوهى تملأ أوعيتهم..

أنا واندى (يا أمى) شايه

لا أنا الأول

أنا جيت قبلك

تزعق فيهم والبسمة الرائقة تنفرج عن السنتين المتباعدتين فتضفى على وجهها المستدير حلاوة وبهاء

بس يا همارة

هادر (حاضر) يا عكروت

كله هيا هد (حياخد).

ينفض الصبية من حولها، فتعود إلى مكانها فى الحوش، وتصب لنفسها كوباً آخر من الشاى وتمزجه بالحليب الساخن، تشفط بُق الشاى، ورأسها مستند إلى جزع النخلة، تغمض عينيها وتُبقى بق الشاى فى فمها.. تستعذبه.. تبتلعه، ثم تردد: اللاااه.. ما أجمل الكوب الثانى.. يعدل الرأس المائلة.

اعتادت منذ الصغر أن تكسر ريقها بالكوب الأول الذى تشربه مع الفايش، أما الكوب الثانى فلكى توزن به رأسها كما تحب أن تقول.

★ ★ ★

كعادتها استيقظت مبكرة لتفترش بقعة الضوء التي تفترش الأرض الملاصقة للجدار الشرقى من الدار، ما أن تقرفصت فوقها حتى التقطته عيناها الصقريتان ينفلت من الباب.. عبدون الصغير.. حفيدها عبدون الصغير، قبل أن تبتلعه حجرة الكانون.. تزعق عليه.. تسأله لقطع الوقت، من وين يا عفريت يا صغيرون..؟

يضحك وهو يسألها: كيفك يا أنّا(٢)..؟

– سلمك الله يا وليدى من كل سوء.. جبت اللبن من شلويه..؟

– أيوه يا جده...؟

همهمت وعيناها تجوبان الدور.. تجتازان كل الدور التى يملك أصحابها أبقاراً تمتلئ ضروعها باللبن.. حَمَد النيل، وعثمان شايه، وسكينه سيدى، وشايه آجيد (عقيد)، الكل يجود بلبن أبقاره لمن يطلبه، لا يملك إلا ذلك، وإلا فماذا يفعل به؟، إذ اعتادوا منذ الأزل على منحه لا بيعه.. بيعه!! ولمن نبيعه.. لابن أو بنت عم أو خال أو لأخت أو لأخ.. يا عيب الشوم... كل شىء يُمنح دون مقابل: البيض والدجاج والخضر، ماعدا الحبوب..

لكن على الرغم من ذلك فالصغار العفاريت يجدون أنفسهم منساقين إلى شلويه، بالضبط كما كنا أيام صبانا نجد أنفسنا منساقين إلى دار جدتها «زهرة البوب» التى لم نر باب بيتها مغلقاً أبداً، ولم نرها ترد محتاجاً من الحَلَبْ(٣)، يسألها إحساناً.

يراها تتمتم كلاما لم يتبين منه شيئاً فيسألها: ماذا تقولين ياجده..؟ فتجيب وهى تهز رأسها ببطء شديد: تذكرت جدتك «زهرة البوب» يسألها : مَنْ زهرة البوب يا جده..؟

– جدة شلويه يا وليدى.

– أتذكرينها يا جدة..؟ صفيها لى بالله عليك.

– انظر لوجه شلويه وأنت تراها

(وجه شلويه بلون القمح الذى حمته أشعة الشمس، والوشم الأخضر يلون شفتها السفلى الغليظة، والشلوخ الرفيعة تشق خديها من أعلى لأسفل.. ثلاث على خدها الأيمن وثلاث على خدها الأيسر).

يسألها فى لهفة: ولكن لماذا هذه الشلوخ التى تشوه وجهها يا جده..؟

قالت: عادة قديمة نقلتها جداتك اللائى جئن إلينا من دنقلا.

سألها: ثم ماذا عن الجدة زهرة البوب..؟

نفشت صدرها متباهية وقالت: كانت يا وليدى أول بنت من قبائل الكنوز تذهب إلى المدرسة.. كل صباح كانت أمها تجدل لها شعرها بعد ما تدهنه بدهن الغزال، يلمع ويبرق وينزل على كتفيها وظهرها مثل الشلال.. يا سلاام يا وليدى.. كانت جميلة.. ما تقول نبرتارى ولا أى ملكه.. لا لا.. فاتت كل الملكات.

سألها وقد اتسعت حدقتا عينيه: حقيقى يا جده..؟

تستطرد وكأنها لم تسمع سؤال حفيدها: ثم تلبسها جلبابا نظيفا، كل يوم جديد تلبسها جلباب غير، وطرحة فى لون الحليب، بعدها تخرج من الدار وتمشى جنب النيل لما تصل المدرسة فى نجع العمدة، كلنا تمنينا أن نكون مثل زهرة البوب، لكن كيف..؟ أبداً ما قدرنا نقنع أهالينا يلحقوننا بالمدرسة،

فقضينا عمرنا فى التمنى. أما هى ما دار بالها إلا للدرس.. شهر والتانى وكانت تقرأ مثل أحسن فجير (فقيه)، وما ادرى ليه الكبار خاصة الحريم ما كانوا راضيين عن تعليم زهرة، لكن ما أحد تجرأ على كلام أبيها فى هذا الموضوع غير عمتها «طمايه البوب»، كل صباح والبنت تمشى للمدرسة وهى تزن على راسه: واچرست الشوم يا أخى، ستجعلنا أضحوكة فى بر النوبة كلها، لكن أباها أبداً ما دار باله لكلامها، لغاية ما زهقت طماية فى النهاية وسكتت عن الكلام فى الموضوع

– طيب يا جدة، ليه ما دخلت البنات بعدها المدارس..؟

تنهدت ثم زفرت ألما وهى تسترجع في ذهنها ما حدث، ثم قالت: ظلت طمايه البوب تتربص بالمسكينة حتى أنهت دراستها بمدرسة البلدة، فلما قرر أبوها الحاقها بمدرسة تبعد عن قريتنا بمسيرة يوم كامل بالبوسته، وجدتها فرصة لتجدد محاولاتها.. أطلقت لسانها من جديد، لكنها اضطرت فى النهاية أن تقول: وآى منا (وأنا مالى)، لما لم يكترث أخوها بكلامها.. تجىء زهرة إلى النجع كل شهر لتقضى معنا يوم الخميس ونصف نهار الجمعة.. وفى أول أجازة حكت لنا والبسمة تمرح فوق شفتيها ما قام به صبية النجع الذين التحقوا معها بالمدرسة البعيدة لحراستها فى الطريق إلى المرفأ.. قالوا لعبدون نُجد: أنت مثل

فلق النخل، طول بعرض، فامش أمامها، فسار أمامى، وأنت يا أدريس دهيبه تحفظ كتاب الله فأمش وراءها، فسار ورائى.. أما عوض مجيد وباشرى حفيظ فسار أحدهما عن يمينى والثانى عن يسارى.

– طيب كيف نتونس فى الطريق يا اخوانا..؟ سألهم عوض مجيد أجابوه: نتونس فى المركب يا بهيمة.

وضحك وجهها لما قالوا لها: بنت الجبايل يحرسها أولاد أعماما من الشياطين. لما سألتهم: تحرسوننى من ماذا..؟

يااااه.. أيام يا وليدى.

ألحف فى سؤالها: لم تجيبينى يا جده على سؤالى.

قالت مستدركة: البنت ما استمرت في الدراسة.. مات أبوها فماتت آمالها..

انتهزت عمتها «طمايه البوب» الفرصة ولم تتركها تفلت من يدها.. عاودت زنها على رأس أمها، التى كانت تنوى أن تقنع ابنتها بالتزام البيت.

– البنت صارت عروسة.. البنت جسمها فار ولابد أن تلزم الدار..

كفايه چرسه يا بنت الجبايل.

لم تكن أمها فى حاجة إلى كل هذا الشحن، لكنها كانت كلها

آذاناً واعية، قالت لابنتها بعد أن انصرفت عمتها: يكفى ما حصلت عليه من علم يا زهرة.. الناس يا بنيتى أكلت وشنا.

ما فى واحدة فى البلد كلها سافرت بره البلد تتعلم غيرك.

تقول زهرة: مالنا والناس يا أمى.. اتركينى أكمل تعليمى.. أريد أن أصبح مدرسة لأعلم ناس البلد... والله يا أمايا ناسنا ما ينقصهم غير يتعلموا وتشوفيهم.

تسألها أمها فى حيرة: طيب ومصاريف المدرسة يا بنيتى، ومصاريف المعيشة.. كيف ندبرها بعد موت أبيك..؟

ونهنهت باكية، فأخذتها زهرة إلى حضنها وسرحت عيناها الحزينتان إلى البعيد وراء أمل مراوغ، لم يكن يُشرق حتى خبا، ثم انطفأ.

★ ★ ★

رأت الصبية الذين يكبرونها يختلفون إلى كُتاب أواد فجير (الشيخ عوض) يقرأون ويحفظون سور القرآن عقب رجوعهم إلى دورهم، فحاولت أن تفعل مثلهم.. تستعير كتابا.. تفتح دفتيه وتتقرفص بجوار الحائط.. أى حائط، تسند إليه ظهرها وتحاول أن تستنطق الحروف.. تستعصى عليها فتلجأ إلى الرسومات التى تعلو الكلمات.. تستعين بها.. تلتقط عيناها رجلا يحمل صفا طويلا من طرابيش مرصوصة فوق بعضها.. تتهته: مرة

خرج الراجل بتاع الطرابيش إلى السوق شايلا الطرابيش فوق بعضها.

– شلويه هوى.. ووشلويه

يأتيها صوت أمها من إحدى الحجرات المطلة أبوابها على الحوش، لكنها تجد في الكتاب ما يرضى شيئاً فى نفسها، خافت إن تركته أن تفقد حلاوة شعورها فتمعنت فى الرسم، كادت تضحك لما رأت بعض القردة متراصين على أحد فروع شجرة مر بها بائع الطرابيش، متحفزين للإنقضاض عليه، ثم قالت: فشافه بعض القرود من فوق الشجرة.

انشغلت الأم على ابنتها.. خافت أن يكون ألم بها مكروه، فجاءت إلى الحوش مهرولة، يسبقها صوتها مناديا.. شلويه.. شلويه هوى.

نظرتها مقعية في ركن.. التقطت أذناها صوتها.. ونطوا عليه وخطفوا الطرابيش، ثم بصوت خفيض.. نعم سمعت إدريس زبيدة يقول ذلك وهو يقرأ فى نفس الكتاب أمس

تبسم وجه الأم ضاحكا، وسرت الفرحة فى كيانها لما رأت من أمر ابنتها، قالت وهى تقترب منها: غدا تكبرين وتتزوجين ويكون لك بيت كبير وأولاد حلوين مثلك.

قالت شلويه بحزم وإصرار: غداً أكبر وأدخل الكُتّاب.. كُتَّاب

آواد فجير يا أمى.. أقرأ وأحفظ القرآن.. انبسطت أسارير أمها وهى تقول لها: غدا تكبرين وتدخلين الكُتاب.. والآن..؟ قالت شلويه: والآن دعينى أعرف ماذا فعل بائع الطرابيش مع القرود.

وها هى الأيام تمر سريعة، أسرع مما توقعته أمها.. تكبر شلويه وتحفظ الحروف الأبجدية والأرقام قبل أن تختلف إلى الكُتاب، لتتفوق على أقرانها، وتظهر نبوغا فى حفظ سور القرآن واستيعاب آياته، فينقلها الشيخ عوض إلى السنة الثانية بعد أن حفظت ستة أجزاء قائلاً: خسارة إن القرية ليس بها مدارس ابتدائية.

ثم بعد فترة صمت: يبدو أن هذا قدركم يا بنات النوبة.

أصبحت عروساً رغم صغر سنها.. ارتوى جسدها بماء الشباب مبكرا، فامتلأ القد والتف، وأشرأبت الأثداء حتى ليخال أنهما ضاقا من طول حبسهما ويودان التخلص فرارا من وراء جدار ملابسها البسيطة.. تلتهمها أعين الفتيان الذين يتحرشون بها.. كما كانت أعين الرجال النهمة تنهشها، حتى أن البعض كان يتعمد التواجد فى الطرق التي اعتادت السير فيها، وجاءت الأمهات إلى أمها يطلبنها عروساً لأولادهن، لكنها رفضت كل من ذُكر اسمه أمامها.. لا يا أمى.. دعينى أكمل دراستى.. كانت أمها أيضاً تأمل فى أن تواصل ابنتها دراستها، فهى لم تزل

صغيرة، لكن جسدها الفائر دس فى قلبها الخوف على ابنتها، وتركت أذنيها لوشوشة الهواجس، تشجعها على تزويجها وإلتزام دارها، فى ظل زوج يحبها ويحميها.. لكن كيف وهى ترفض كل من يتقدم لها..

دهب كرار، عثمان همِّيده، عوض حسيبه، همِّد عبدون.. كل مرة تطبق شفتيها وتهز رأسها رافضة، حتى سمعت اسما انتظرته طويلاً، ما أن سمعته حتى أشرق وجهها بابتسامة حلوة، أضاءت أرجاء الدار لما التقطته أذناها، وأعادت الطمأنينة إلى قلب الأم «شاميه حسين» لتحل محل القلق على ابنتها التى كانت ترى الحزن يغلف حياتها بعد موت أبيها وانقطاعها عن الكتّاب كما حدث لجدتها زهرة البوب.

أمسكت لسانها قبل أن ينفلت معربداً فى تجاويف فمها بزغرودة تتبعثر فى سماء النجع، قالت لنفسها: يا عيب الشوم.. الرجل مازال لحما طريا فى لحده.

ثم انفلتت خارجه من أسر الدار وهى تردد فرحة:

سوف أذهب إلى خالاتك وعماتك أبلغهن

احست شلويه بقلبها يثب فرحاً وهى تحدث نفسها: أخيراً جاءك بحر الزين يطلبك عروساً له، وغدا يُغلق عليك وعليه باب واحد، ثم أغمضت عينيها ليعود بها قطار الزمن السريع إلى

سنوات الصبا الحلوة:

لما كنا صغاراً لعبنا معاً فى الدور المهجورة، وعند الشاطىء قرب البربا، وفى الوسعاية وراء الدور، وتحت النخيل وأشجار السنط.. كنت دائماً اختاره عريساً لى، لما كنا نلعب «عريس وعروسه» فكان الصبية يغارون منه، لكن الولد «دبيره» كان أكثرهم غلاً، وحقداً عليه، لما قابلت وده بصدى له وإعراض عنه، ولما منعه العيب من التعرض لى، تحرش به..

ولم يجد غير سبابه يقذفه به، أو يعضه كالكلاب، لكن بحر الزين أبداً ما رد عليه سبابه ولا عضه، الولد «دبيره» خجل من نفسه، فقال للآخرين: هيا نزفهما إلى بعضهما، ثم وقف بين ضرابى الدفوف وغنى، اللاااه على صوته.. ما كنت أعرف أن صوته جميل إلا لما سمعته فى هذا اليوم يغنى:

واحد وأربعين بنت اللبيب عبد الله

ما حامت طريج، ماجالست بالحله

نهدك برتكان

حاجبك هلال هلا

شوفتك تسند اللى أدوه الشهاده وولى

ما حامت طريحما جالست بالحله

كان صوته سلسلاً، رائقا كماء النيل.. هلل الصبية إعجابا،

اقتربوا منه وهم يطرقعون أصابعهم فوق رأسه وهم يزعقون..

حبابك عشرة يا دبيره.. حبابك عشره.

وعندما اقتربنا من النهر أحاطوا بنا وهم يرددون:

الورد كان شوك من عرج البنى فتح. .. عريس عريس عريس

وعند الشاطىء وقفنا، اغترف كل منا غرفتين، شربنا ثم توضأنا، صلينا ركعتين، ثم نثروا حبوب القمح فوق رؤوسنا، وبدلا من يأخذنى بحر الزين تحت جناحه لنعود أدراجنا من حيث أتينا وقف طويلا يتطلع نحو الشمال، ركبت عيناه التيار المتماوج الآتى دوما من الجنوب، والجارى فرحاً إلى الشمال.

أحسست بابتعاده عنى، فسألته فزعة:

إيه يا بحر.. أين ذهبت..؟

أحس بالخوف يخالط صوتى فقال: أنا معك يا بنت العم.

قلت: إياك يا بحر الزين تركب الماء، والا طوتك الغربة كما طوت شباب النجع.

ربت على كتفى، وسرنا بين الجموع.. احتوتنا الدروب الصاعدة نحو الدور.. همس فى أذنى: أنا من نبت هذه الأرض، فلاتخافى ابتعادى، لأن تربتى هنا..

★ ★ ★

سنة تمر وتجىء سنه، تجىء ثم تجرى مولية الأدبار.. قلقت

الأم على ولدها الذى مرت سنوات على زواجه ولم يعقِّب.

– كم سنة مرت على زواج أخيك البوب يا حُسنه يا بنيتى..؟

أحست بالسؤال يجثم كحجر على صدرها فآثرت التخلص منه، فألقته على مسامع ابنتها.

– كثيرة يا اماى.. لكن ليه تسألين الحين..؟

قالت مؤكدة: لقد تزوج بعد بناء دارك بشهرين، وقبل أن يشترى بحر النيل بقرته بإسبوع، وبعد ما ولدت «عشيرة» خالتك ولدها النور بحولين.

حكَّت حُسنة رأسها، بينما كانت عيناها تنظران إلى اللاشيء، ثم قالت:

والله فاكره زين يا اماى، لكن فيه شيء وراء كلامك.

قالت فى عناد: وولد عشيرة الحين فى المدرسة.

نظرتها ابنتها مليا فى صمت

استطردت الأم: أخوكى يا بنيتى كبر وما عجّب (انجب) للحين.

قالت حسنة: مسكينة البخيتة يا يوما، لكن يمكن يكون العيب ما منها.

قالت العجوز فى أسى: وددت أن تكون له ذرية تحمل اسمه واسم أبيك، ذرية كثيرة تملأ عليه الدار، وتكون له عزوة فى البلد.

قلت: ناسه كلهم كلموه يا امايا.. الأولاد زينة الدنيا يا البوب، عزوه يا اخوى، لكن ودن من طين وودن من عجين.

والبخيتة اعترتها الهموم وكسى حياتها الحزن، فلجأت إلى الخالق تناجيه:

يا رب، يا حنان، يا منان، وإلهى، يا قـــادر.. إرزقنى ولداً واحداً أو بنتا واحدة، واكفنى أعين الناس الشامته.

تنهنه وهى تمسح دموعاً انحدرت على خديها، ثم تهز رأسها وهى تستغفر ربها: استغفر الله العظيم، ثم قامت لتصلى للواحد الرزاق، ولما طال انتظارها للخلف، سألت وتقصت.. جرت يميناً وشمالاً، شرقاً وغربا.. إلى بيت الشيخة بتول، إلى المحرقة شرق.. إلى مقام الشيخ شرف وأشعلت له الشموع وذبحت شاها ووزعت على الفقراء لحمها، وألقت العملات الصغيرة فى صندوق النذور، واستحمت بماء الورد قبل أن تنام فى حضن بعلها، ودست حجابا تحت إبطها.

تقلبت على سريرها وخداها مبتلتان بالدموع، سرعان ما جففتها لما أحست برجلها يلج من الباب الكبير المطل على بحر النيل.

★ ★ ★

القد ممشوق.. سمهرى وإن كان الفودين قد اشتعلا شيبا

اكسبه وقارا وهيبه، يتدفق حيوية ونشاطا كظبى وليد يركض وراء أمه، أو شاب فى العشرين، وهو كذلك عندما يعتلى العنجريب ويأخذ البخيتة فى حضنه، يصهر جسدها فى جسده.. تذوب بين ذراعيه، تتأوه.. تصرخ شبقاً.. يسقيها عسله وتعطيه عسلها فيسبحان فى دنيا غير الدنيا..

اتجهت عيناه إلى السماء، بينما تتمتم شفتاه: مننت علىّ بكل شىء، فلم تضن علىَّ بالولد..؟ استغفرك يا رب، فالملك ملكك، والحكم لك ولا يعلم الخير إلاك، ثم قام على عجل، ودس قدميه فى مداسه، وخرج مهرولاً إلى الجامع ليكون أول الداخلين إليه، وبعد أن يصلى ركعتى الصبح يجرى إلى أرضه الموازيه لمجرى النهر ليقلب تربتها ويسقيها عرقه ويرويها كده، فتشب السيقان قوية، عفية، وسرعان ما تتفجر الثمار، ينظرها فى حيرة، ويعربد السؤال فى رأسه: كل شىء يؤتى ثماره إلا أنت يا بخيته.. حرثت أرضك ليال طوال، وسقيتها مائى فلماذا لم تعط ثمرها..؟

يهل عليه المزارعون فتأخذه كلماتهم من شروده.

– الله ينور عليك يا البوب

– إياك تنسى حوض الخضار.

– عليك الكشرنجيج (اللوبيا) والبصل واترك الباقى علينا.

– تعال يا البوب اشرب معانا الشاى.

قال: دى لوقت تاجى البخيتة بالشاى.

قال قائل منهم: أصيل يا البوب يا خوى، والله ما احد فى النوبة كلها صبر على جماعته مثلك.

وقال آخر: لو قمت من ساعتك وتزوجت ما أحد يلومك.

كركع البوب ضاحكاً وقال: تتكلم مثل اماى.

وقالوا: الأولاد عزوة..

وقالوا وقالوا وقالوا..

قال والبسمة مازالت عالقة بثغره: الأمر لله.

انتصف الليل ولم يخايل النوم عينيه، ظلتا مرشوقتين فى السماء على الرغم من رحيل القمر، فاكتست بثوبها الرمادى المائل للزرقة.. ارتد إلى حوار ضحى الأمس.. أحس بحزن يثقل صدره، وسؤال قاس يدق جدران رأسه، هل ستقضى أيامك دون ولد تتوكأ عليه حينما يتقدم بك العمر وتنهكك السنون..؟

أحس برجفة تسرى فى جسده.. نفض رأسه واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم دلف إلى الحوش.. توضأ وصلى.. أطال السجود داعيا المولى جل وعلى.. «ربى لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين».. آمين.

انسل إلى حجرته.. وجدها فى انتظاره، أخذها إلى حضنه.. حطت رأسها على صدره.. أحست بدفئه.. دس شفتيه فى

شفتيها.. دخلت فيه.. انصهرا.

فى الصباح كان يهزها فرحاً وهو يقول: أرأيت ولدنا يا بخيتة.. لقد رأيته أنا وملأت عينى منه، ولد زين يا بخيتة، ما رأيت مثله أبداً فى بر النوبة كلها.. ولد حلو، نبيه، ذكى.. بسرعة شب، كبر، انتصب عوده، ومشى للكُتاب.. تربع أمام الشيخ، ويدّه على صدره، ويقرأ بصوت حلو، رائق:

بسم الله الرحمن الرحيم (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور). صدق الله العظيم.

الشيخ فرح به فرحاً عظيماً، امتلأ سعادة بنبوغة.. أمر الصبية أن يصفقوا له.

صفقوا لأخيكم يا أولاد، ثم يمسح على رأسه وهو يقول له: غدا تختم القرآن، ويقيم لك أبوك السفين(٤)، ثم تسافر للقاهرة وتلتحق بالأزهر.

قالت والدموع تفر من عينيها: خيرا.. اللهم اجعله خيرا يا البوب.

شهر ونصف ثم تحس بالدوار يهاجمها، تهفو نفسها لقطع الطمى الجاف.. جئنها بقطعه الصغيرة المتناثرة بكثرة عند الجرف وهن ينصحنها.. ارقدى على ظهرك، وارتاحى خالص،

ما تعملى شىء.. وإن كان على شغل البيت ما تشيلى هم.. البنات تچيكى الصبح لمان يدخل الليل.

سكتت متضررة والسؤال يترى فى رأسها: كيف تترك رجلها يعمل وحده فى أرضه، ويرعى غنيماته، كتير عليه والله.

انتفخ بطنها فراحت تتمايل على جانبيها فى مشيتها واضعة باطن كفها على جنبها.

تعلق النسوة وهن يحملقن فيها دهشاً:

– البخيتة حامل بعد كل هذه السنين.

– والله ظننتها عاقراً وأرضها بور.

– كلنا ظلمناها.

– كان العيب منه أم منها..؟

– ما من أحد فيهم.. كل شىء بأمر الله.

– سبحانك والهى يا قادر.

بضعة شهور وجاءها الطلق.. صرخت يوووه.

قالت واحدة من جيرانها القريبين: أيوه يا بخيتة إحزقى.. احزقى.

وتصرخ البيختة عاليا وهى تتمرغ فوق الحرام الخشن، وتكزر على أسنانها، وكسا العرق وجهها ورقبتها، وبلل كل جسدها، جئنها النسوة وأحطنها، قلقت أمها فزعقت فى صبية

صغيرة: اذهبى واحضرى «جاشية» بسرعة.

همست واحدة فى أذن واحدة أخرى: ولادة البكرى صعبة.

أجابتها فى خبث وهى تتلصص حولها: خاصة بعد ما تكبر وتشيخ.

قالت جاشيه القابلة وهى تباعد بين ساقى البخيتة: إحزقى يا بخيتة، وطلبت طستاً به ماء ساخن.

حزقت البخيتة فأطلت رأس صغيرة من الكوة الكامنة بين الفخذين، سحبتها يد جاشيه المدربة،

ملأت وأوآته فضاء الدار.

سمع البوب البشرى وهو يعمل فى أرضه، فجاء يجرى حتى خاض فى أكوام الحريم.. أخذه إلى حضنه وهو يردد: بسم الله ما شاء الله.

قالت النسوة: لا قوة إلا بالله.. سمّه يا البوب

أزالت فرحته التجاعيد الدقيقة المتجمعة على أطراف عينيه وفمه، برقت عيناه .. انطلق الاسم مموسقا حلوا من بين شفتيه: بحر الزين، ثم قبله قبلتين.. واحدة فوق جبينه، وواحدة على خده الأيمن.

تشابكت الأيدى الممتدة إليه لتأخذه من أبيه، ناوله لجدته التى لم تسع الدنيا فرحتها بقدومه بعد سنوات الانتظار الطويلة المضنية.

قالت جاشيه القابلة متملقة أبيه، علّه يُجزل لها العطاء: يتربى في عزك يا البوب، ويرزقك من البنين عشرة.

دس الرجل في يدها قطعة معدنية مستديرة زينت صورة الملك المورد الوجه، المكتنز الخدين أحد وجهيها، نظرتها فملأتها فرحة، أضاءت وجهها الذى ملأته التجاعيد، ثم دستها في جيبها وهى تقول للبخيتة:

اسقيه لبنك، ولما يشب ويقف على ساقيه أطعميه من خير أبيه الحلال، واحرصى على تعليمه لينفع نفسه وناسه وليحفظ القرآن ليباركه الله.

ثم همت بالإنصراف، لكن البوب الفَرِح أقسم بكل الأيمانات أن ذلك لن يحدث إلا بعد أن تتناول الغداء.

★ ★ ★

حمدت البخيتة ربها وشكرت فضله بأن رزقها وليدها قبل أن تبور أرضها، ويجف ماؤها، ويتمكن اليأس منها، زغرد قلبها فرحاً بعد أن أذهب الله عنها الهم وكيد النساء اللائى كن يعايرنها بالعقم، ويحرضن رجلها أن يتزوج بأخرى لتجىء له بالخلفة، فأماتت بوليدها شماتتهن.

كبر النبت وإن لم يستو بعد على سوقه.. نظرته يحبو فوق رمال الحوش وهى قابعة تحت ظل النخلة الواقفة في وسطه،

وتذكرت ما عانته من طول انتظارها له، وآلام ولادته، فهبت رياح الخوف فى قلبها عليه، فلم تتركه يغيب عنها.. تأخذه معها أينما ذهبت، يحجل كغراب وهو يقبض بأصابعه الغضة على ذيل جلبابها، يتعثر مرة ويقع مرة، فأدمت حصوة مدببة جبهته.. تناثر دمه على وجهه وجلبابه.. تخطفه إلى حضنها وقد ملأها الرعب، تضمه إليها مرددة: بسم الله الرحمن الرحيم.. محمد جدامك، محمد وراك.. يا كاف البلا (البلاء) ... آآه من عين الرماد اللى نظرك وما صلى على النبى، لعنة الله عليه.

ثم حرقت له البخور، ووضعت فيه ورقة قصتها على هيئة إنسان، راحت تخرم عينيه بإبرة وهى تردد: من عين داريا، ومن عين سكينة، ومن عين كسبانه، وعين باشرى أبو عين مدوره، وعين محروسه.

وفى المساء جاءت جدته وثقبت له أذنه اليمنى وأدخلت فيها حلقة فضية.

كبر الولد واستوى على سوقه فانفلت من داره، يجرى هنا وهناك، يلعب بين الدور وتحت ظلال النخيل، ثم يجرى إلى رفقته الذين لم يعرفوا له اسما غير «ابو حليجه».. هيا يا ابو حليجه نلعب أول چاكود، نصطاد سمكا يا بو حليجه.. نعوم.. نلعب سندديب.. أجف جون يا بو حليجه..

حتى تشاجر ذات يوم مع صبى آخر، فراح يعايره: إر برومينى.. يا بوروى.. (يا بنوته)، فأمسكه بحر الزين من خناقه، وأوقعه أرضا، ثم جرى إلى داره الذى دخله ثائراً وهو يزعق فى جدته: اخلعى هذا الحلق عن أذنى.

سألته مرتعبه: ليه يا وليدى..؟

قال بإصرار: اخلعيه أولا ثم اسألينى.

- يا وليدى دا حافظك من العين.

قال مستهزءً: دا حتة صفيح واللا حديد، كيف يحفظ من العين..؟!

قالت أمه: كلامه صحيح يا يوما (يا أمى).

يتذكر بحر الزين هذا فيحمد الله أن تم ذلك قبل أن يختلف إلى المدرسة، واللا لكان من الصعب أن يمنع رفاقه من مناداته بهذا الاسم الذى كرهه، ولسخر منه مدرسوه الذين اكبروا ذكاءه ونبوغه المبكر.

★ ★ ★

تعبت عيناه من التنقل بين وجه المدرس المورد وعينيه الزرقاوين، والمسطرة الطويلة التي تنتقل من نقطة لأخرى على خريطة العالم الملونة والمثبتة على السبورة، وأسئلة كثيرة تتقاطر فى رأسه.

أين يا تُرى تقع هذه البلاد التى يتكلم عنها.. ايطاليا وفرنسا واليونان والدول الإسكندنافيه..؟ وهل هى مثل بلادنا هذه، وناسها مثل ناسنا..؟ لا.. أكيد ما مثلهم، وإلا فلماذا هذا المدرس وجهه أبيض، مشرب بالحمرة، وعيناه زرقاوان، وناسنا هنا فى لون البلح الجنديله.

لكن كيف يمشون إلى هذه البلاد..؟ وكيف أعرفها وأعرف ناسها..؟

لن تعرفها إلا إذا ركبت الماء، وأبحرت مع التيار، وتظل تبحر وتبحر مثلما فعل ماجلان، المكتشف المغامر الذى تحدث عنه أستاذ الجغرافيا بإعجاب.

لكن لم العجلة..؟ غدا تنتهى من دراستك هنا، وتسافر، وتعرف كل شىء.

يااه.. مازال المشوار طويلاً طويلا، ويبدو أن لا نهاية له، لكن لا مفر من بلوغ الهدف، فقط لا تتعجل.. إصعد درجة درجة، ثم سافر أنى شئت لترى ناساً غير الناس.

ثم انطلق إلى الدروب التى لا تنتهى إلى نجعك، بعد انتهاء الحصة الأخيرة.. آثر أن يكون وحده.

عيناه مغروستان فى رمال الدرب، وخطواته بطيئة وجلة، فالرأس مشغولة بكثير من علامات الاستفهام التى لا يجد لها

إجابة:

كيف استطاع ماجلان الوصول إلى البلاد التى اكتشفها..؟ وما هى الوسائل التي استخدمها..؟ وما هى الإمكانيات التي ساعدته فى إنجازه..؟

أجابنى الأستاذ لما سألته: أن الدولة مكنت له كل الإمكانات، وما أن دخل الدار حتى استلقى على أول عنجريب قابله، مغمضاً عينيه، أنهكته سخونة الجو، وسرعان ما سقط فى جب النوم العميق..

قم.. استعد.. ارتد ملابسك.

مَن...؟

ألا تعرفنى...؟ أنا ماجلان.

مَنْ..؟ ماجلان..؟

أمعن النظر.. نفس وجه المدرس مورد الوجه، نفس العينين الزرقاوين.

هيا.. نفض النوم عن نفسك، لا تكن مثل ناسك.. إركب.

وأشار إلى مركب كبير، بأشرعة كثيرة، بعضها فوق بعض، (يا لها من مركبة عظيمة)

اخترقت عباب البحر، المحيط.

ما هذا..؟ يااااه.. طرق سوداء، لامعة، واسعة، وعلى الجانبين

بنايات عالية، ومركبات مختلفة تجرى هنا وهناك، وأناس يرتدون ملابس مختلفة.. أنيقة، رائعة.. أناس كثيرون، بيض الوجوه، زُرق العيون، ذهبية الشعور، وجوه جميلة، كالبدور، كلهم هكذا.. كبارهم وشبابهم وصغارهم، ،كلهم يتأبطون كتبا.

سألته مندهشا: إلى أين يذهب كل هؤلاء..؟

قال: إلى دور العلم، أو إلى العمل.

وهؤلاء...؟

– الكل يعمل.. ليس هناك متسكعون..

يااه.. ما هذه البنيات العالية.. أبراج كنائس.. معابد.. منائر، وما هذا النهر العظيم، وتلك الجبال التى تغطيها الثلوج والخضرة، والأشجار الرفيعة الباسقة، والورود مختلفة الألوان، وتغريد طيور يُطرب الآذان وتشيع فى الجو بهجة وجمالا، والنسمات تداعب الوجوه، وتهز أعطاف الشجر، و.. أحس بأننى ممتلىء نشاطاً وحيوية.. يااه.. أين الحرارة القاسية والرمال الساخنة والجبال الجهمة والصمت الرهيب من كل هذا الجمال الذى أراه..؟ أين العقارب والثعابين والدفان وكل الحشرات السامة التى تهدد حياتنا هناك من هذه الطيور الملونة المغردة..؟

يا بحر.. يا بحر الزين.. قم.. أريد أكلمك.

– أيوه يا ابويا.

- إوعى لى زين يا بحر.. أنا بكره احتاجك تساعدنى فى جمع البلح.

نظرنى مليا وسألنى مندهشا: مالك يا وليدى..؟

قلت: لا لا .. أبداً.. أبداً.

- باكر تصحى بدرى إن شاء الله.

(باكر انتهى من دراستى هنا، وأسافر القاهرة وأدخل الجامعة، أتعلم وأرجع البلد أعلم ناسى.. يا سلام لو تعلم الناس لابد أنهم سيغيرون كل شىء هنا، ربما إلى أحسن مما رأيته فى الحلم).

- إيه يا وليدى.. مالك..؟ ليه ما ترد على.

- حاضر يا أبويا.. حاضر، سوف استيقظ مبكرا وأذهب معك..

سجى الليل وعينا بحر لم تذق النوم، فراح يتقلب على جنبيه حتى انتصف الليل، ظن أن النوم قد جافاه، لكنه غافله واندس فى جفينه، وظل هكذا حتى صعدت الشمس إلى قبة السماء، وأرسلت أشعتها الحارة إلى الأرض.. سقطت فوق وجهه.. لسعته، نطر الجسد مذعوراً، قعد للحظات يلوم نفسه.. ماذا سيقول لأبيه..؟ لكن لماذا لم يوقظنى قبل أن يذهب إلى الأرض.. تلفت حوله.. قام من مكانه.. دخل حجرة أبيه.. اعترته الدهشة

لما رآه راقداً.. هاجمته الوساوس.. نفض رأسه علّه يفيق من حلم مزعج أو كابوس، فالرجل أبداً ما تأخر فى نومه إلى هذه الساعة، رنا إليه فتأكد أن ما يراه حقيقة.. زعق : أمباب (أبى)، وقعت عيناه على صينية الشاى بجوار سرير العنجريب، والكوب ملىء، لم ينقص منه شىء.

صرخ ملتاعاً: أبويا.. أبويا.

جاءت أمه مهرولة لما سمعت صراخه، نظرت زوجها مسجياً على فراشه، وعيناه مرشوقتان فى السماء، وقد استحال سوادهما إلى رمادى اختلط ببياضهما.

صرخت: بيو بيو.

فى لحظات كان ناس النجع يحيطون الجثة مولولين.

جرى بحر الزين إلى «دهبية» الراهبات الرابضة عند خور البربا (المعبد) ليجىء بواحدة منهن علها تنقذه من براثن الموت.. حمل الهواء إلى أذنيه صراخ النسوة وعويلهن.

قال يحدث نفسه: آآه يا بحر الزين.. ضاعت آمالك.. ماتت مع أبيك، كُتب عليك أن تقضى بقية عمرك حبيس نجعك، تفلح الأرض، تحرث وتزرع وتقلع وتجمع البلح.. إصبر أو لا تصبر فالأمر سيان.

(وها قد مرت أعوام على رحيل أبيك.. تركت المدرسة وتعمل

فى الأرض، وشَلَوَّيه تكبر ويرتوى جسدها بماء الشباب، وهى حلوة، يتهافت عليها الرجال، كل يتمناها زوجة، لتملأ حياته دفئاً، فهيا لتطلب يدها وإلا سبقك غيرك وفاز بها)

ملأه الخوف، فحث الخطى إلى بيت عمه «حسب الرسول»، ضمتهما المضيفة، جلس قبالته، وشبك أصابع يديه ببعضها، دسهما بين ركبتيه، وراحت قدماه تهتزان قلقاً.

– إيه يا وليدى.. مالك..؟

– هاه.. أبدا.

– قل يا بحر.. تكلم يا بنى.. قل ما عندك فربما أستطيع مساعدتك.

– شلويه يا عمى.

– مالها يا وليدى..؟

– أريدها زوجة لى، وأخاف أن يسبقنى غيرى إليها فيفوز بها، ربت على كتفه مطمئناً، ثم قال:

هى لك إن شاء الله.

ثم زعق على زوجه: سبيله هوى.. ووسبيله.

استبقت الباب ودخلت ملبية.

قال آمراً: إذهبى توا إلى بيت المرحوم البوب وانتظرينى هناك.

استقبلتها البخيتة هاشه.. مرحباً بنت العم.. أهلا بك.

لكنها أحست بالقلق لما أخبرتها بأنها ستنتظر مجىء زوجها كما أمرها، حتى رأته داخلا من الباب الكبير بصحبة ولدها، فتعاظم الهم فى صدر البخيتة فأسرعت تتخلص منه قائلة: خيرا..؟

قال: كل خير.. اذهبى أنت وسبيله إلى شايه حسين واطلبا منها شلويه لولدنا بحر الزين.

وثب قلبها وهى تنطلق كحمامة إلى بيت شايه فى آخر النجع لتطلب منها ابنتها شلويه لولدها بحر الزين.

★ ★ ★

قلت له لما ضمنى إلى حضنه فى الحجرة التى سنعيش بين جدرانها أربعين يوماً، قبل أن ننتقل إلى دارنا الجديدة : سأسكنك قفصاً أغلقه عليك وألقى مفتاحه فى النهر لتبتلعه سمكة كبيرة تعودت على الإبحار دوماً فى الأعماق.

كركع بحر الزين ضاحكاً ثم قال متسائلاً: ولم لا تسكنينى قلبك وتغلقينه علىَّ؟

قالت: أخاف أن يرق لك فيتركك تغادره بمجرد أن تبثه شكايتك.

تساءل: ياه.. ألهذا الحد تخافين يا ابنة العم..؟

قـالت: أتعـاهدني يا بحـر بـأن تبـقى هنا في النجع لا تتـركـه.. عاهدني أن تعيش معي هنا بين ناسنا وأهلينا.. نزرع أرضنا وننتظر أطفالنا.. سنملأ بهم النجع يا بحر، ستعاهدني أليس كذلك..؟

(سـرحت عـيناه بعـيـدا، ولاذ إلى الصـمت، فـخـفت من هذا الصمت وعزمت على ألا أتركه وحده أبداً، لأسد عليه كل المنافذ، وحتى لا يفكر في السفر ويلحق بمن سبقه من رجال النجع).

سأعمل معه في الأرض.. أذرى له البذور.. اقتلع الحشائش.. أروى له الزرع.. أحرس له البلح.. أهش الصبية.. أزعق فيهم..

- إمش يا حمار يا صغير.

(لا تنس أننا كنا نفعل مثلهم لما كنا صغاراً.. كنا نختبىء من حراس البلح في زوايا الظلام، ثم ننقض مثل الصقور على البلح في لحظة سـهوهم ونكبش كبشة ثم نجرى لنختبىء وراء الدور المهجورة.. هيـ يـ يـ يـ يه.. أيام، كم كانت جميلة.. لم يعوضني عنها سوى جلوسنا سوياً آخر النهار بعد الانتهاء من أعمالنا) نمحو تعبنا بحكايات الجدات التي لا تنتهي.)

★ ★ ★

قال يحدث نفسه وعيناه تتقافزان من صفحة السماء الزرقاء الصـافيـة إلى سطح الماء المتمـاوج في مـجـرى النهـر، ثم إلى أجمات النخيل، وهو يسند ظهره إلى جزع نخلة عجوز ليستريح

من عناء إعداد الأرض لزرعة جديدة، وقد ألهبت أشعة الشمس ظهره ووجهه.

(الله يرحمك يا أبى.. اختطفك الموت غدراً، وتركتنى صغيرا لأتجرع الشقاء وحدى، وأحرم من نعمة العلم)

امتلأت مآقيه بالدموع.. تساقطت على صدره.. شعر بثقل أجفانه.. تمدد فوق أديم الأرض متوسداً ذراعه، غاص إلى أعماق النوم..

إذهب إلى النهر.. إغمس جسدك فى مياهه لتغسل أحزانك.. إخلع جلبابك.. إقفز.. قفزت.. ياه، فضاء مظلم.. أزعق.. يلتف صدى صوتى حولى.. أتلفت.. لا شىء سوى الظلام..

أزعق: ما هذا.. أين أنا..؟

أسمع صوتا يمور فى الفضاء: أنت هنا فى بطنى.

– لكنى لم أكن مغاضباً، فقط أنشد العلم وهو طلب مشروع.

– لك ما تريد.. فقط الصبر والإصرار.

★ ★ ★

يا بحر الزين.. يا بحر الزين.

اتجهت عيناه صوب الصوت، رآه مقبلا عليه، تكسو وجهه بسمة لم تغب عنه أبداً، تخلع بهاء عليه، وإن كانت تضيق من حدقتى عينيه الزرقاوين.

أهتف فرحاً: أين أنت يا أستاذى..؟ سألت عنك كثيراً.. هل أعادتك الوزارة للمدرسة ثانية..؟ أرجو ذلك.

– لقد جئت خصيصاً لألقاك، ثم أعود من وقتى.

– غير معقول.. تجيء من هنااااك، تتحمل كل هذه المشاق لتلقانى، وتسافر من وقتك..؟

(أتمعن فيه.. أرفض أن أصدق أنه جاء من البعيد، فملابسه نظيفة من غير سوء، أنيقة فى غير إسراف، ولا غبار على شعره ورموش عينيه، ولا أثر للتعب عليه)

قلت أسأله لأتأكد: قلت من أين أتيت..؟

قال: ليس مهما.. اسمعنى زين يا بحر، لقد اخترتك دون غيرك من ناس النوبة، لما رأيته من ذكائك.

قلت: كلى آذان صاغية.

قال: لقد جئت إلي هنا مكرها، لكنى بمرور الوقت وجدتنى عاشقا،متيما بطبيعة بلادكم، بالهدوء الذى يغلفها، بطيبة قلوب أهلها، بالحب المعشش فيها.. فقط لم يقلقنى فيها سوى الفراغ القاتل الذى كانت تلتف أحباله حول رقبتى بعد اليوم الدراسى.. انظر حولك يا بحر، ماذا ترى غير صفرة الرمال ووعورة المدقات والأحجار والحصى المتناثر هنا وهناك، والجبال الجهمة الرابضة وراء الدور، ونخيلات معدودة متناثرة، وشريط ضيق من الأرض

يُزرع لمدة شـهر أو أكثر قليلاً ثم تغمرها الميـاه.. أين الناس.. لماذا يفر الرجال هربا إلى الشمال..؟ وإلى متى الفرار..؟ هاه.. إلى متى..؟

قلت: مضطرين يا أستاذى.

شرع سبابته أمام شفتيه أن اسكت، فسكتُ.

استطرد: انظر حولك ثانية.. انظر جيدا.. ما رأيك..؟

سألت مندهشاً: رأيى..؟!

أجاب: نعم، رأيك فى هذا البؤس الذى تعيشه قراكم.. فى هذا الصمت الذى يغشيها.. فى هذا الفراغ الذى تعيشه أنت وناسك هنا..؟ ثم أين الرجال يا بحر.. أين أخوالك وأعمامك.. أين رجال القرى البعيدة والقريبة..؟ هاجروا..؟ لماذا..؟ لا تقل وراء الرزق، فالرزق هنا بين أياديكم.. أمام أعينكم، لكنكم لا ترونه لأنكم أتخذتم القرار قبل التفكير فيما حولكم.. فى طبيعة الأرض، فى مياه النهر الممتد على طول القرى.. هذه المياه التى تفجر الخضرة من باطن الأرض، وتنشر الخير.. فقط بعض الجهد.

صحت مندهشا: آآآه.. نعم.

– بلادكم يا بحر غنيه.. مليئة بالموارد، وادى العلاقى غنى بالذهب ومناجم الرخام، ووادى السياله أرضه سهله، منبسطة،

تحتاج لبئر أو بئرين لريها لتعطيكم ما فى جوفها من خير.

لم أكد أفتح فمى لأسئله: وماذا يمكننا أن نفعل..؟

حتى قال محتداً: ما أضاع الناس إلا انتظار الحلول من الغير، وربما كان هذا الغير هو سبب البلاء.. يا بحر لن يحل مشاكلكم إلا أنتم.. نبه ناسك يا بنى.. نبه ناسك، وابدأ بنفسك.

أومىء برأسى موافقا..

صمت هنيهة ثم قال: إبدأوا بزرع أراضيكم.. ارفعوا ماء النهر أو احفروا الآبار، لترووا الأرض، ثم انتظروا الخير.

★ ★ ★

يا بحر.. يا بحر.. إصحى.. لقد نمت كثيراً.

انتبه، نفض رأسه، تمطى، استرجع كل ما رآه فى منامه.. هتف: يااااه.. كلام مهم جداً، لو استطعنا أن نفعله لتغيرت الصورة تماماً، ولحل العمار محل الخراب، ولكن هذا يحتاج للعلم والتكنولوجيا وإلا فكيف يمكننا أن نروى الأراضى المرتفعة عن منسوب الماء فى النهر، كما أن الأساليب المتطورة تحتاج لرأس مال كبير، فمن أين لنا ذلك..؟ لكن لابد أن هناك حل.. أكيد هناك حل، حتى لو بدأنا بالعلم والبحث.. المهم أن نبدأ ولو بالعلم، فلأبدأ به.. أسافر لأعمل والتحق بالمدارس الليلية، كثير من اخوتنا تخرجوا فيها.. نعم، وإلا فلأبحث عن بديل.

شلويه.. يا شلويه.

إيو وبهر (نعم يا بحر)

خرجت من حجرة الكانون تخبط كفيها ببعضها، تنفض عنهما دقيقا علق بهما.

– نعم يا بحر.. ألا تستطيع أن تنتظر حتى انتهى من عمل الخبز لإعداد الفطار..؟

– تعال يا شلويه.. اقعدى جارى.

توجست خيفة فنظرتنى مليا قبل أن تأخذ مجلسها بجوارى..

(آآه.. من أين أبدأ..؟ كيف أقنعها..؟)

قالت: مالك يا بحر...؟

– ضقت من حبسى يا شلويه، أشعر بالاختناق من هذه الحياة الراكدة.

اتسعت حدقتا عينيها وهى تسأله: يعنى إيه..؟

– أسافر لعدة سنوات، ثم أعود لأحقق حلمى.

– إحمد ربنا يا بحر، والله إنت ما حاسس بنعمة ربنا عليك.

– يا شلويه يا بنت العم الموضوع لا نعمة ولا عز ولا شىء من هذا.. الموضوع هو كيف نحرك الركود اللى حاطط فوق البلد، أريد أن أخرج من البلد وأسافر، أشوف ناس تانية.. كيف تفكر، كيف تعيش، كيف تعمل.. اشوف وأتعلم وارجع أطبق ما

رأيته.. أزيح حالة الكرب اللى نعيشها.

قالت محتدة: وهنا ما فى علم..؟ وهنا (وهى تشير إلى جانب رأسها) ما فى مخ يفكر..؟ إشمعني يعنى كل شىء فى السفر..؟ ثم بعد هنيهه..

يا بحر يا أخوى اسمع زين.. كل الرجال الذين سبقوك إلى بر مصر، ما أحد فيهم رجع.. كلهم بلعتهم الغربة.. اغرقتهم فى بحرها..

(آه والله.. هنا فى علم، وهنا فى مخ.. لكن.. لا.. لا.. لازم أسافر).

استطردت قائلة: لا يا بحر.. لا تسافر.. لا أتصور الحياة بدونك.

– إذن تعالى معى..؟

– أين..؟ إلى المجهول..؟ من تعرف هناك..؟

– إذن انتظرينى.. لن أغيب كثيراً.

– ستستهويك الغربة ولن ترجع.

– لن أتغرب إلا لأرجع..

ذرفت عيناها الدموع ونهنهت قائلة: كنت أعرف ذلك منذ أن رأيتك تتطلع نحو الشمال.

★ ★ ★

المياه ضحلة فى النهر، فالمنسوب منخفض، وغاطس البوسته لامس القرار منذ أن رست فى حلفا منذ أكثر من أسبوع، لا مفر إذن من السفر بالمركب.

تواترت خطواته عبر المدق المتدلى نحو النهر.. ها هو ذا شراع مركب شلالى.

حث الخطو تجاهه

– شلالى هوى

– أهلين بحر الزين

– اسمع يا اخوى.. اسمعني زين.. سأجيئك بعد صلاة العشاء.. انتظرنى.. أم أنك تخاف من ناس النهر..؟ لا تخف، فعرائس النهر لا يخترن إلا الشباب العفى، أما الشيخ الكركوبة مثلك ما يبصو له.

ترك شلالى بحر الزين يتكلم كيف يشاء، لم يشأ أن يقاطعه ليس خوفاً أو احتراماً، صحيح أنه جاء من أقصى قرى الشمال من زمن بعيد لم يدركه بحر الزين، الذى شب عن الطوق ليرى شلالى يعمل على مركبة عمه «صالح البوب»، ولكنه أراد بسكوته أن يستوعب كلامه دفعة واحدة.. يزنه فى رأسه، ثم يرد إذا رأى أنه يستأهل الرد، أو يهمله تماما حسب رؤيته، هكذا كان منذ عرفناه.

وشلالى يحب الاختلاء بنفسه فى مركبه، متطلعاً إلى السماء، مخترقا أجواز الفضاء، متنقلاً بين الأجرام المتناثرة أو راشقا عينيه فى استدارة القمر، الذى يعكس سطح الماء المتماوج فى النهر ضوءه الفضى، فلا يتمالك نفسه المحبة للغناء، فيتركها على سجيتها.. يخترق صوته أجواز الفضاء. وينسكب فى الآذان حلوا صافيا:

فلتفتحى يا أبواب كلابشه الموصدة أبدا
وانخفضى يا جزر دابور المتراكمة
وكن ثابتا يا خزان أسوان
الرابض كالعملاق فى وسط النهر
فإن زورقى لا يهاب التيار المتدفق
ويمرق كالسهم وهو يخترق مياه الخزان العاتية
ويجرى شمالا وجنوباً فى ثبات وقوة(٥).

تسمعها الآذان فتطرب لها النفوس، وترددها مرات لتختزنها الذاكرة، لتستوعب أغنية ثانية وثالثة اعتاد ناسنا فى النجع سماعها بصوت شلالى المغلف بالشجن.

هذى جزوع النخيل أجمعها.. أحزمها
محكمة بأحبال قوية
وأرميها فى لجة النهر عوَّامة استوى عليها

فيا قاربى الحزين الذى يُقلنى فى رحلتى المجهولة

أين سيكون مرساك وأين حدود مصيرك..؟(٥).

★ ★ ★

تقول لها أمها وهى تحاول أن تثنيها عن الذهاب إلى المرفأ: يا عيب الشوم يا شلويه.. ما أحد من حريم النجع يا بنيتى مشت للموردة وراء رجلها.

تقول شلويه: يا أمى.. إنه زوجى على سنة الله ورسوله، وأنا ما شايفه فيها عيب ولا چرسه.

تكوم ناس النجع عند الشاطىء فى المنطقة التى تفصل نجعنا عن النجوع الشمالية فى كومتين.. إحداهما للرجال والأخرى للنساء والصبية.. روت دموعها رمال الشاطئ حزنا على حبيب سيركب ماء النهر ويغيب فى المجهول، حيث يذهب الرجال ولا يعودون.

لما فرد شلالى قلع المركب، ومد يده إلى بحر الزين يعينه على القفز إلى المركب، صرخت شلويه رغما عنها صرخة شقت صدر الصمت.. لا.. لا يا بحر ما تسافر.. ما تسـ ا فـ ر

أحس بقلبه يتفطر ألما، كاد أن يلتفت ناحية الصوت لكنه سيطر على نفسه فى آخر لحظة حتى لا يضعف أمام عاطفته، فاستدار إلى الناحية الأخرى.

رمى شـلالى طرف المدراة فـغـاصت فى الماء حـتى لامـست القرار، ضغط على طرفها الآخر بكتفه، فراحت المركبة تبتعد عن الشـاطئ، ثم جـرى إلى الدفـة.. امـتـلأ القلع الأبيض بالهـواء، فـجرت المركبة فوق صـفحة الماء خفيفة، رشيقة نحو الشمـال، بينمـا يقـبع شـلالى عند طرفـهـا، ممسكا بذراع الدفـة ليناور بمركبـتـه، مـغازلا الريح، مـوجـها القلع بحـيث يمتلىء بالهـواء، فتندفع المركبة بسرعة أكبر.

يطمئن شـلالى فيمتلئ فرحـاً، ويعلو صـوته مغنياً، وهو ينظر إلى بحر الزين وكأنه يرد على كلامه الذى وجهه له صباح اليوم

أنا شلالى ولد الجبايل

جلبى أبيض مثل الحليب

طيب مثل حَمَل وديع

لكن فى الشدايد أسد جسور.

توغلا فى البـعيد، يسكت شـلالى فيلفهـما أحبـال الصـمت.. ينقـبض قلب بحـر الزين وهو يرنو إلى النوتى الشـيخ، ثم سـأله قائلاً:

اتستطيع أن توصلنى بمركبتك هذه إلى مصر المدينة..؟

عـقـد الشـيخ بين حـاجـبـيـه وهو ينظره مـشـدوهـا ولاذ إلى الصـمت، فـقـال بحـر الزين: مـاذا أصـابك يا صـاحب القلب

الجسور..؟

قال شلالى مستنكراً: ماذا قلت.. مصر..؟!!

أجاب بحر الزين: نعم.

قال الشيخ بعد فترة صمت طويلة: لا يا بحر.. سأوصلك حتى الشلال ومن هناك يمكنك أن تسافر بالقطار إلى مصر.

***

تقرفص بحر الزين وأسند ظهره ومؤخرة رأسه إلى عامود الصارى، مستظلاً بظله.. أغمض عينيه لما هبت بعض النسمات وداعبت وجهه، أحس بخدر يسرى فى جسده، ثم أخذه النوم إلى رحابه.

(يااه.. ما أجمل هذه الطرق الطويلة، كم هى واسعة ونظيفة، أين هى من طرقنا التى تغطيها الرمال، وما أجمل الخضرة والأشجار التى تؤطر الأرصفة.. لكن قل لى يا بحر الزين إلى أين أنت ذاهب..؟ ومن سيلقاك هناك..؟ من تعرف؟ أحسبت الأمر هينا، فرفضت حتى مجرد سماع الآخر..؟

غاص فى قلبه الخوف، لكن صوتا أتاه من أعماقه، قائلاً: هوِّن عليك.. حتما ستلقى أحد بلدياتك، ممن سبقوك إلى هناك، واعلم أن الفوز لا يتحقق إلا للمغامرين وليس للكسالى والخائفين.. هيا.. إشدد خطوك.. ها هو القطار، مازال واقفا

ينتظرك.. إجر.. إركب..

تتحرك عجلاته بطيئة فوق القضبان، زاحفاً للأمام..

تُك تُك، تُك تُك، تُك تُك

غرق فى بحر الخضرة الممتد إلى المدى أخرج رأسه من نافذة القطار، امتدت عيناه حتى اصطدمتا بالأفق.. يااااه كل هذه أراض؟.. كل هذه زروع..؟ كل هذه أشجار ونخيل..؟! لكن أى مياه تكفى لرى كل هذه الأراضى..؟ إنها تلك التى تجرى فى نهرنا متجهة دوماً نحو الشمال.. تتسرب إلى باطن تلك الأراضى فتفجر منها الخضرة، هنيئاً لهم، ولكن لماذا نكتفى بالحسرة ونحن نراها تجرى بعيداً عن بلادنا ولم نفعل شيئاً..؟

نظر الجالس أمامه طويلا قبل أن يطلق أسئلته من عنانها:

إيه يا ولدى.. إنت يا إما سارح وتكلم نفسك، أو غارق لشوشتك مع أحلامك التى لا تنتهى.. إيه حكايتك..؟

أفاق من غفوته على كلامه.. قال: ماذا أفعل والرحلة طويلة وشاقة، والنفس ضاقت بما ساورها من هواجس، وتملَّك منى القلق.

قال الرجل مطمئنا: لا تخف، فكلنا ساورتنا الهواجس فى سفرتنا الأولى.

يا بحر.. يا بحر.. اقتربنا من الشلال.

يااه. يومان كانا من أجمل ما عشت، مع شيخ طيب، شاركته طعام العدس بالبصل المقلى، واليخنى بالسمن البلدى وقطع اللحم المقدد، واستمتعت بغنائه وصوته الدافئ، ولكن أنّى لمثل هذه الأيام أن تبقى.

نظرت حيث أشار إلى ميناء الشلال حيث يضيق مجرى النهر، والمحلات الضيقة وأكشاك الفول والطعمية والسمك المقلى تنتشر فوق اليابسة الملاصقة للنهر.

جرى شلالى ولم قماش القلع وربطه، ثم ضم ذراع الدفة إليه فانحرفت المركب نحو المرسى، تهادت حتى لاصقت الشاطىء، قال وهو يمد يده نحوى: شد حيلك.. طمئنا عليك.. مع السلامة.

صرت نقطة فى خضم أمواج البشر المنتظرين فى الميناء، افترشت الأرض، مستندا بذراعى على متاعى القليل.

– تأخر القطار.

– لا تقلق، فهو دائماً هكذا.

– إيه.. دائماً..؟

– تحلى بالصبر، فربما يجىء حالا، وربما يجىء غدا أو بعد غد.

(يا نهار أسود.. غدا أو بعد غد..؟)

وجدتنى أتحسس جيبى، فربما احتاج لشراء أطعمة ومصاريف أخرى.. لكنى ما كدت أطمئن على ذلك حتى دوى من بعيد عاليا مدويا.. خرق الآذان وزلزل الأبدان، فاستيقظ النائمون، وانتبه الغافلون، واضطربت الطيور فراحت تضرب الهواء بأجنحتها، وتظل هكذا لفترة قبل أن تعود لأكنانها. أرسلنا أعيننا إلي المدى، فاصطدمت بشيء همجى أسود كليل، تعلوه مدخنة ضخمة، تنفث دخاناً أسود، يقطر وراءه عربات رمادية كثيرة بدت كثعبان خرافى.

هب الجميع واقفين، بعد أن التقطوا أمتعتهم الفقيرة، التى كانت متناثرة فوق أرضية الميناء.. الكل يهرول يحمله نحو أبواب العربات التى وقفت منتظمة فى طابور طويل وراء الجرار الذى يعلوه منخاره الأسود المتعال.. يلقى البعض بما يحمل داخلها من خلال النوافذ الكثيرة، المحطم زجاجها وأخشاب شيشها، ثم يقفزون منها لداخلها أو يركضون نحو أبوابها للدخول منها، وأنا أقف مشدوها، قرفاناً من تلك الفوضى التى انتشرت في المحطة منذ دخول هذا القطار اللعين، بينما يخترق أذنى الصراخ والشتائم والضجيج.

- حاسب يا بن الو...

- أنا يا ابن القحبة..

– بتقول إيه..؟

وتماسكا وتضاربا.. يلتف الناس حولهم، لكن.. يا خبر.. ما هذا..؟ يستل أحدهم سكينا، يرفعها فى وجه خصمه، يندفع بينهم نفر من الناس ليفرقوا بينهم، بينما البعض يدس أصابعه فى جيوب اللاهين ويستولون على ما بها ويولون الأدبار، والبعض الثالث يلتصق بالغلمان.

ينطلق صغير القطار مؤذنا بالرحيل، فيترك كل ما يُشغله ويجرى نحو العربات الفاغرة أفواهها لتبتلعهم فى أجوافها.. تناثروا فوق مقاعدها الخشنة. ثم انشغلوا لدقائق فى وضع أشيائهم بين المقاعد وفوق الأرفف الخشبية المثبتة فوق رؤوس الركاب، ثم غاب كل منهم بعيدا مع أفكاره وهواجسه بمجرد أن حطوا أجسادهم فوق المقاعد الخشبية.

يتربصنى القلق، يحاول أن يدس فىَّ نصاله، أتشاغل عنه هرباً.. أترك مكانى.. أتجه أماما لآخر العربة.. أتجمد رعباً لما التقطت عيناى العجلات الحديدية تدور بسرعة، تهرس القضبان.. أجفل فأغمض عينى، استدير راجعا من حيث أتيت.. أقف هنيهة بجوار المقعد أرنو للجرم الهائل الممدد فوقه، راشقاً عينيه فى سقف العربة.. توترت للحظة.. أمرته منفعلاً أن يضم ساقيه لأجلس..

نظرنى قرفاً قبل أن يجيبنى: شوف لك مكان تانى.

قلت مصراً: لكنى كنت أجلس هنا.

قال محتداً: روح فى داهيه وانت حتتكلم زى الحريم.

(هذا شخص همجى ولا فائدة من التفاهم معه)

جلست بجوار نافذة محطمة الزجاج والشيش، أسندت رأسى للمسند الخشبى، مغمضاً عينى الملوعتين صداعاً، وأسد أذنى كى لا يخترقها صوت احتكاك العجلات بالقضبان لكن هيهات

تَك تَك تَك تَك تَك تَك

تَك تَك.... تُك .. تُك..

يُبطىء دوران العجلات، تسافر عينى إلى الفضاء عبر النافذة المكسورة الزجاج.. يااااه.. ما كل هذه البنايات العالية، والطرق الواسعة اللامعة، وتلك الحدائق المخضرة.. جنة مليئة بالأشجار والنخيل، حتى الوجوه موردة، مرتاحة، باسمة، والملابس نظيفة، مختلفة الألوان.. والأذواق.

توقف صوت احتكاك العجلات بالقضبان، تعرضت أبواب العربات لهجوم شرس من أناس دخلوهامنطلقين بأجسادهم كطيور تخلصت من طول حبسها، تتطاير أعينهم كمجانين، باحثين عن أماكن خالية، وهجوم آخر علي الركاب بالمقاطف والسلال... انطلقت عليهم من النوافذ، مصطدمة برؤوسهم

ومناكبهم، أو تسقط على حجورهم.

تكدست الطرقات بالأجساد والأمتعة والكراتين المربوطة بالدوبار.. يتقافز البعض فوق المقاعد بمداساتهم القديمة كقرود هاربة من الغابات، ومنها إلى أرفف الأمتعة.. يقعدون وسيقانهم مدلاة فوق رؤوس القاعدين.

ياولاد الكلاب يا حَوَش..! تفوه.

- إنت يا عم.. رجلك فوق راسى.. ينفع كده..؟!

قال غاضباً: إيه... مالك؟

- رجلك.

- ما جاتش عليك

(لا فائدة.. يبدو أننى أنا الغريب وسط هؤلاء، وإلا فلماذا أنا وحدى المتأفف.. الرافض لما يجرى..؟)

يبدو ألا ملجأ إلا إلى الهروب إلى الفضاء خارج العربة.. يااااه... كل هذه أراض زراعية.. كل هذه زروع وأشجار.. لا قوة إلا بالله.. الخضرة تغطى الأرض المنبسطة حتى المدى، وجداول مياه تشقها طولاً وعرضاً، تسقيها وقت الحاجة.. ولكن ما كل هؤلاء الصبية المنحنون فوق الزروع..؟ آآه.. إنهم يجمعون القطن.. لو أن لنا مثل هؤلاء الناس لما أجدبت بلادنا من الرجال الذين ظلموا أنفسهم وقراهم بهجرتها إلي مدن الشمال، ليس

بحثا عن لقمة العيش كما يوهمون أنفسهم، بل لاستبدال الموات الذى يعيشونه إلى حياة الدعة والكسل الذى استمرؤه، ولم يطرأ على حياتهم من اختلاف سوى الجلوس على أرائك من خشب بدلا من الجلوس على الأرض وراء جدر البيوت تحت أشعة الشمس.. لم يحاولوا خلق مجال للعمل فنسوه، أما هنا فالكل يعمل حتى الصبية، وأكيد.. أكيد أنهم يتعلمون.. ينشأون نشأة سليمة وسط الخضرة والمياه، ويقرأون الصحف ومختلف الكتب، لكن ما بال سلوكهم مازال همجياً، ولماذا أراهم يأكلون بعضهم..؟ ربما لأنه لا تربط بينهم أواصر القربى التى تربط بيننا هناك فى قرانا المحرومة من كل ما عندهم..؟ أم أن العيب فى طريقة الحياة التى يعيشونها..؟ أم يرجع للقلق الذى يملأ جوانح الناس هنا..؟ لكن لماذا هذا القلق..؟ أووه.. مالك أنت وكل هذا..؟! كنت مرتاحاً هناك، وكنت تخلد إلى النوم فى آخر النهار بعد عمل يوم فى الأرض دون أن يشغل بالك شىء من هذه الأمور.

هجم المساء، وانسحب ضوء النهار ليفسح المجال للظلمة التى لم تستطع الأضواء الكابية التى تبعثها المصابيح الكهربية الموزعة على أسقف العربة أن تبددها، لكنها مكنتنا من الرؤية بالكاد.

(أضواء كابية، ومقاعد خشبية تؤلم الإليتين، وسلال وكراتين فوق الأرفف وبين المقاعد، وأناس أجلاف متوحشون. ومداسات قديمة فوق رؤوس تتساقط فوق الصدور).

- اتفضل يا أخ

فوجئت به يجلس أمامي، أرنو إليه متأففا وقد ملأ فمه بطعام، انتفخ شدقاه حتى صارا كبالونين أوشكا على الانفجار.. لكن ما هذه الرائحة النتنة.. أقلب شفتي قرفا، وأسد فتحتي أنفي.

أتلفت باحثا عن مصدر الرائحة العفنة..

وكأنه قرأ تساؤلي، فقال وشظايا الطعام تتناثر من فمه: انظر خلفك.

شابان أشقران عليهما وعثاء السفر، يختلط بياض أعينهما بالشعيرات الدموية، والملابس متربة، متسخة، والحقائب التي تعلق وراء الظهور فوق سيقانهم.

قال مستطرداً: منذ أن ركبا ورائحتهما قلبت كيان العربة. يا دى القرف.. القطار يجر وراءه أكثر من عشر عربات ولم يركبا إلا هذه..؟! لا مفر إلا إلى النوم، لأقفل عيني وأسد أذني.

خيار يا لوبيا.. خيار خيار، طرّى قلبك.

سميط وجبنة وبيض

بيبسى.. حاجة ساقعة يا بيبس.. بل ريقك

ما هذا..؟ من أين جاء كل هؤلاء الباعة..؟

شحط وراء شحط.

إروى عطشك يا حـران.. ترمس ترمس والميـه السـاقـعـة.

أمعقول هذا..؟ هل هذا قطار أم سوق مواشى..؟

ورنيش.. ورنيش

زغدنى بسن فرشاته وهو يسألنى: تمسح يا ريس.

رحت أقلب كفى متعجباً وأنا أتساءل: أمعقول هذا.. ماسح أحذية فى القطار؟!

إيقاع دف يتناهى إلى سمعى من بعيد، يتخلله غناء كالمواء، إخص عليك يا زمن لما تخلى العالى واطى.

يقترب.. تختلط الأصوات.. إيقاع الدف، المواء.. ضجيج.. الكل يتلاحم، يهاجم الرؤوس.

وتعلى الواطى وتديه

يركب سيده ويدلدل رجليه

ويمنعه م. الكلام ويقوله هس

آآى.. رأسى ستنفجر.. كيف أدعو النوم وسط هذه الفوضى..؟

إذن لأصحو وأفنجل عينى.. لكن الغريب أننى لم أتحمل هذا

لمرة واحـدة، فكيف يتـحـمله هؤلاء طول حـيـاتهم..؟ البـاعـة والكمسارية والمفتشون والمسافرون دوما لمسافات قصيرة.

اقترب الموكب.. الصوت المشروخ يهاجمني، تحوطه أصوات فتيات صغيرات، يافعات، تشرئب أثداؤهن من وراء ملابسهن البسيطة الرثة، يبين منها لحومهن البيضاء.. تنغرس فيها أعين الركـاب النهمـة.. يلتصـقـون بهن.. تمتـد اليـهن أصـابعـهم. تتحسسهن.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أغمض عيني هربا.. انكمش داخلي.. اتداخل.. لكن من هذا الذي يهز كتفي.

إيه يا سمارة.. مكسوف واللا مكسوف..؟

وأحسست بجسد ناعم يلتصق بي..

- إيه يا بنت.. ما هذا..؟ ابعدي.. ابعدي.

دست أصابعها في جيبي وهي تقول: هات قرش وأنا أبعد.

- ابعدي أولاً.. إبعدي.

صرخت مستغيثة: يا لهوي.. الحقوني يا خلق.. الراجل ده بيحسس عليّ وبيشدني ناحيته.

أصبحت محصوراً بين ركاب العربة.. تضيق الحلقة حولي..

اخص عليك راجل ناقص ماتختشيش.

مش عيب عليك.. دي قد بنتك.

كل الأعين صُوبت نحوى.. تزدرينى.. تلعننى.

صحت عالياً: والله ما حصل حاجة من دى.

قال أحدهم وكان شيخاً كبيراً أكلت عافيته السنون: إذا كنت أنا شايفك.

فصاح الركاب: حرام عليك.. إنت ما عندكش ولايا.؟!

– طيب كنت رحت الحكروب قبل ما تركب القطر.

– حكروب..؟!

قال الشيخ مؤكداً: يا راجل دا انا شايفك هناك عشرات المرات.

سألته مندهشاً: أنا...؟!

ضيقت علىَّ الأعين خناقها.. أعين غريبة، غبية..

لكن لابد أن أفكر بسرعة لأتخلص من هذا الحصار.. لأعطى المرأة قرشاً لأشترى رضاها.

دسست يدى فى جيبى.. صرخت ملتاعاً: فلوسى.

تباعدت دقات الدف، ونواح المغنية، ولحوم الأجساد البيضاء البائنة من مزق الجلاليب وحلمات الأثداء.. ارتدت الأعين وانزوت فى محاجرها، وأصابعى مازالت تبحث متوترة عن نقودى القليلة التى أدخرتها لتكون زادى فى سفرتى، فماذا أفعل..؟ ماذا أفعل..؟

هدّأ القطار من سرعته.. تسربت إلى العربة أضواء المصابيح المنكوتة على طول المحطة.. أطلت علينا البنايات العـــاليـــة، وواجهات المحال والمقاهى، ورأسى مشغول بنقودى المسروقة.. تسود الدنيا أمامى، وأحسست أنها تضيق حتى صارت كخرم أبره.. مددت يدى إلى متاعى.. التقطته وجريت نحو باب العربة.. قفزت إلى الرصيف.. وقفت.. تحرك القطار مبتعداً نحو الشمال البعيد، بينما كانت عيناى زائغتان.. لا تستقران على شىء.

---

(١) مفتتح الحكايات فى النوبة، يقابلها صل على النبى فى مصر .

(٢) جدة

(٣) كان النوبيون يطلقون لفظة الحلب على الغرباء الذين كانوا يجيئون لبلادهم للشحاذة .

(٤) حفل ذكر .

(٥) بتصرف من مواويل قديمه.. ترجمة محمود شندى .

أبو الفرح

يضحك دون أن تنفرج شفتاه الحادتان كنصلى موسى، بل ولا يصدر عنه أى صوت، فقط يهتز جسده اهتزاز خفيفاً، أما إذا كانت الضحكة عميقة، بأن كانت من قلبه فإن جسمه يهتز بشدة كاهتزاز وتر مشدود من طرفيه وجذب من مركزه، جذبة قوية وتُرك بنفس القوة.. يظل جسده الرفيع الخيرزانى سادراً في اهتزازه حتى يسكن.. هذا إذا كان صاحبنا واقفاً، إما إذا كان متقرفصاً، أو جالساً على مقعدته فوق الرمل الناعم، غير مستند إلى جدار، وغالباً ما يكون كذلك، إذ أنه لا يطيق الجلوس على الأرائك أو حتى المصاطب، فإن جسده يهتز بشدة حتى يستلقى على ظهره، ويروح يرفس الهواء بساقيه الخشبيتين، ويظل يتدحرج فوق الرمل حتى لو كانت حُبيباته منصهرة تحت أشعة شمسنا القاسية، ولا تجد أحداً فى النجع كله يعبر عن ضحكة بتلك الرقصة الأرضية سواه، وأمه «سكينة سيدى»، كما أخبرنا بذلك العم «فضل الكريم» وهو يحكى لنا عن «أبو الفرح» رفيق صباه وصديق عمره لما سمعنا نشاكسه فرحين:

يالله قوام يا ابو الفرح يالله قوام هات البلح

تلتقط أذناه أصواتنا فيقف – إذا كان ماشياً – ويروح يتلفت حوله، عله يرى أحدنا، لكن دون جدوى، إذ نكون قد اختفينا وراء جدار، أو جزع نخله، يغلبه الضحك فيهتز جسده بشدة كوتر مشدود جُذب من مركزه وتُرك بنفس القوة.

تذكرت ذلك وأنا أتطلع إليه وكأنني أنظره لأول مرة.. الرأس كبير، مستطيل كشمامة، مغروسة فى رقبة رفيعة، طويلة، يتخللها بروز يتذبذب لأعلى ولأسفل إذا ما تكلم، يحدها كتفان رفيعان ناتئان، وأذنان كبيران كأذني فيل صغير، أما الوجه فأبنوسى لامع والأسنان بيضاء فى لون الحليب، والعينان خرزتان كبيرتان، حادتان كعينى صقر، حتى أنه كان يستطيع أن يحدد الأشخاص الذين كان يراهم يتحركون على الجانب الآخر من النهر، فى قرية المحرقة، فقط يُضيق حدقتيهما ويظللهما بباطن كفه.

لعلمكم – قال فضل الكريم: لم يكن اسمه «ابو الفرح» كما تنادونه..

اعترتنا الدهشة ونحن نتساءل: نعم.. اسمه ما ابو الفرح..؟

قال: ولِم تندهشون.. كل ناس النجع تقريبا لهم أكثر من اسم.. الناس أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه إنسان متسامح، لا

يحمل ضغينة لأحد، ولا حتى إذا أساءوا إليه، ولأنه أيضاً دائم الضحك.

سألناه وماذا كان اسمه إذن؟

قال مقلدا شهر زاد التي أمتعتنا بحكاياتها فى ليالى رمضان البعيدة: غدا نكمل باقى الحكاية.

غدا..؟ بركه يا جامع.. كنا نفتعل طريقته فى الكلام لنجره إلى الحكى.. لماذا لا أذهب إلى أمه واستمع منها لبقية حكاية ولدها «أبو الفرح» المشوقة، ولأعرف منها من أين تعلمت اللهجة السودانية التى تتكلم بها هى وابنها دون ناس النجع، قلت لرفقتى ما انتويته، فتبعونى دون كلمة.

سكينة سيدى عجوز فى السبعين أو يزيد قليلاً.. قمحية اللون، شعرها نصف ناعم، مخضب بالحنة الحمراء الفاقعة، شفتها السفلى الغليظة موشوقة باللون الأخضر، الشلوخ الطويلة على خديها تميزها عن نساء النوبة الشمالية.. ما أن نراها حتى نلتف حولها، ناثرين شقاوتنا وهرجنا ومرجنا، تحب الصغار وتأنس لهم.. تنثر علينا حنانها بمجرد أن نطرق بابها الموارب أبداً، وندخل حوشه السماوى الواسع دون انتظار رد من الداخل.. زاعقين باسمها المحبب إلينا: إندى سكينه هوووى.

نرمقها مقعية فوق ظل شجرتها فى وسط الحوش، فنجرى

نحوها، نتحوطها صامتين. فتروح تنقل عينيها بين وجوهنا دون أن ننبس بحرف، وتظل صامتة حتى يضيق صدورنا الصغيرة من طول انتظارنا لكلمة منها، فنقول بعد أن عيل صبرنا: وبعدين يا أمّا.. ماذا حدث بعد أن.. فينطلق لسانها بالحكى، وكأنها فقط تمد يدها إلى جعبة لا تنفد من الحكايا لتلتقط إحداها، ثم تهتف قائلة: كُما كُما الله(١).

تقولها ولم تزل تتصفح وجوهنا وكأنها تستطلع شيئاً لم نعرف كنهه.. خبرنا طقوس حكيها حتى حفظناها ظهرا عن قلب.

ننتشر فى أرجاء الحوش، أو نتجمع تحت سقيفة المندرة الواسعة، أو نتكوم تحت شجرة السنط الواقفة وسط الحوش، تلقى بظلالها فوق الأزيار الثلاثة الملتفة حولها .

نردد سوياً قبل أن تبدأ حكاية ولدها التى سألناها أن تحكيها لنا :

حطى القمح على النار   يا ندى سكينه هوى هوى
خلى القمح يبقى فيشار   يا ندى سكينه هوى هوى

تستهوينا القافية فنغرق فى الضحك، ولا نعرف أنها تشاركنا ضحكنا إلا عندما نرى اهتزاز جسدها، ثم تغادرنا إلى حجرة الكانون لتجىء بطبق الخوص العامر بالبلح والفيشار، وطبقا

آخر ملىء بالترمس.. نتخطفها لنملأ بها جيوبنا أو ندسها فى أشداقنا، بينما زعيقها فينا يتناثر فى الفضاء : إصبر يا ولد.. كتير يا حمار منك ليه .

وما أن نفرغ من ذلك حتى نعود للالتفاف حولها لنسمع منها ما جئنا من أجله، والتى سنفاجئها به.. ربما ترفض، وربما ينطلق لسانها كالعادة ولا تتوقف حتى تنتهى منها .

زامت، ثم خلعت أمارات الجد على عينيها اللتين مازالتا تتقافزان على وجوهنا، ثم تقول :

حُمار منك ليه.. إنت وإنت و.. إسكت أنت يا عفريت، ثم سكتت طويلا، فعدنا نضيق عليها الخناق..

ـ إحك يا إندى سكينه .

ـ وحياة النبى حبيبك .

زامت مرة أخرى، ثم قالت غاضبة : أبو الفرح.. أبو الفرح.. ما اسمه الفرح .

قلنا مندهشين : ما اسمه أبو الفرح..؟ أمال إسمه شنو..؟

قالت غاضبه : وبعدين يا جريو إنت وهو.. ؟!

خبرنا من زعيقها هذا أنها انتوت أن تبدأ فى الحكى، إذ أن هذه الزعقة معناها اصمتوا لتسمعوا.. نعض شفاهنا حتى لا تصدر منا نأمه تغضبها فتتمنع عن الحكى .

طال الصمت فقطعته قائلة : كبر الوليد «محجوب» لكن جلبى ما طاوعنى أتركه يخرج من الدار.. روحه ضاجت من الحبسه، وأنا أحس بديجته وطهجان روحه، لكن كيف أتركه..؟

تبادلنا نظرات الاستفسار فيما بيننا، ولما أعيتنا الإجابة زعقنا متسائلين :

مين محجوب يا جده ..؟

أجابت : هو أل تجولون عليه أبو الفرح.. المهم.. الوليد كان نفسه يخرج من الدار عشان يلعب مع الأولاد عند النخيل أو عند المويه (النهر)، لكن كيف وأنا أشوفه ضعفان وهزلان، وما كان يعرف يتكلم زين مثل الأولاد الشياطين.. خفت عليه منهم ومن شجاوتهم.. يضربوه ويمكن يغرجوه، لكن لمان شفته خلاص بيفرفر وروحه ضاجت نفسى ما طاوعتنى،.. تركته يمرُج، بس وصيته.. يا محجوب يا وليدى الوجت ما وجت لعب.. الناس ما تخرج الحين من البيوت، كل الناس تريح فى البيوت، وما يمشى فى الدروب ها الساع (هذه الساعة) غير العفاريت والشياطين وناس الموى، فلو لجيت زول ما تعرفه ما تكلمه، حتى لو نطج إسمك ما ترد عليه.

عاين لى وهز رأسه وخرج، وجعدت مطرحى حاطه راسى على كفى وأنا أفكر فيه، دجيجه دجيجتين ولجيت الهم ركبنى..

ليه يابت الحلال وافجتيه يخرج الحين..؟ المصيبه لو مشى للموى ونزل فيه، ولسه حاجوم عشان أنور عليه لجيته مارج داخل وصدره مسكين طالع نازل وماجادر ياخد نفسه : جلت بسم الله الرحمن الرحيم.. مالك يا محجوب.. فيه إيه يا وليدى.. وهو مسكين ماجادر يرد.. فاجد النطج.. جريت جبت ليهو موى وسجيته، ودعكت ليهو صدره وجعدته على العنجريب وفين لما اتكلم .

إيه يا محجوب.. إيه حصل..؟

قال : يا أماى رجلى خدتنى للموية، جعدت على الأرض ومديت رجلى وشويه وسمعت واحد يزعج من وراى.. إزيك يا محجوب سكينه..

.. إيه اللى خرجك من الدار الحين ؟

عاينت له يا أماى فلجيته طويل طويل.. ما شفت واحد طويل زيه، ولابس جلابيه زرجا جديده، وعمه بيضا مثل الحليب، ويلبس مركوب أحمر، وحاطط عصايه طويله بالعرض على كتفه ومعلج عليها دراعاته.. أنا خفت يا أماى يكون من ناس الموى.. وخفت يا خدنى تحت ويزوجنى واحده من بناته وما يتركنى أرجع لك أبداً.. جمت واجف واخدت ديلى فى سنانى ويا فكيك، والراجل ينادينى :

ولد يا محجوب.. يا محجوب يا واد سكينه.. لكن أبداً ما رديت عليه، وفضلت أجرى لمان دخلت الدار .

سألته : جُلت إيه.. طويل ويشيل عصايه طويله؟ طيب لونه إيه.. فاتح.. غامق ؟

قال : لونه لون الجمح لمان تسويه الشمس وتغمجه .

ثم كمن وجد شيئاً كان قد ضاع منه : أيوه يا أماى.. فيه سنه بين سنانه صفرا، فى لون الزمام والچاكاد(٢) أل يلبسوها الحريم .

ضحكت وأنا أخبط كف بكف وأنا أجول ليهو : يا حمار.. دا ما من ناس الموى.. دا واد عمى فضل الدوم.. خالك.. مشى دُنجلا وانت صغير ورجع أمس ..

سأل مندهشا : دُنجلا ؟!!

قلت : كان يزور أعمامه هناك.. من سنين ما مشى ليهم، وهم مارضوا يتركوه إلا لما زوجوه واحده من بناتهم لمان عرفوا إنه ما تزوج .

كركعنا ضاحكين لما تصورناه يجرى من خاله حتى كاد يفقد أنفاسه، ثم قالت سكينه سيدى : بعد كده تركته يخرج وجت ما يريد عشان يتعلم ويعرف الناس ويعرفه الناس.. وفعلا عرف ناس النجع والنجوع التانيه وكل الناس عرفته.. ويجى يروح

جبلى وبحرى.. فى المحرقه والعلاجى وباجى بلاد الكنوز، لكن ما كان عفريت مثلكم.. لا.. كان يلعب ساكت، وكان ما يشوف زول محتاج لمساعدة إلا ويجدمها ليهو، خصوصا الستات الكبار العواجيز، يجدم خدماته من غير ما أحد يطلب مساعدته.. تعرفوا أرض جدتكم داريا أل فى آخر النجع، كانت أرض مالحه خلاص، وما كانت توصل لها الموية، وكانت مسكينه حالتها تصعب على الكافر.. ولدها الوحيد سافر مصر المدينه، وجعدت تنتظر منه مصاريف.. سنه سنتين تلاته ما فيه ولا حتى خبر فى جواب فاضى.. المسكينه فاض بيها، فى الآخر أخذت الطوريه ومشت وحدها لأرضها، وكانت الدنيا صيف والشمس ترسل نارها للأرض، لكن ما همها، الجوع كافر، والحاجة زل، وهات يا عزيج.. تضرب الأرض بسن الطوريه ضربه المضطر، المحتاج، الخايف من زل وعار الديون أل غرجتها، لكنها مسكينه.. حجية كبيرة وضعيفة، ومهما كانت العزيمة جويه، لكن إيه تعمل العزيمة والإصرار مع الضعف والوهن.. تعبت وعرجت وحست الدنيا تلف بيها وتدور.. وجعت على الأرض وتمددت.. جرى ناس النجع ونجلوها لدارها، وتانى يوم صحى محجوب من الفجر ومن غير ما يجول لأحد، أخذ الطوريه ومشى لأرض داريا وهات يا شغل.. ضرب الأرض بعافيته وفتوته.. يوم يومين تلاته وفى

اليوم الرابع اتفق مع أحمد تود واد عم داريا وأخدوا ركايبهم ونجلوا لها الطمى والسبخ.. الأرض صارت أرض.. شهر واحد وكان البرسيم أل زرعوه يغطيها كلها.. بعدين زرعت داريا فيها الكشرنجيج(٣) والترمس والفول، والله زرع ما شاف النجع زيه.. حتى بعد ما كبر وصار شاب ما كان يسمع راجل كبير ولا حجيه عجوزه تنادى على صبى إلا ويجرى يسأل صاحب الحاجة عن حاجته، ولحظة ويكون جابه ليهو، مش جلتلكم ما شيطان زيكم، ثم ضحكت وهى تقول : تعرفوا الولد حمد واد مدينه إيش سوى مع عمكم مرسال بعد ما نظره ضعف.. كان المسكين دايما يطلب منه يوصله للجامع،. وفى يوم العفريت مشى بيه لمان وصله الجبل وتركه هناك وجال ليهو : الجامع لسه ما فتح، انتظر لمان يجى الشيخ، وتركه هناك ورجع، ما فكر فى ديب ولا دبيب ياكل الراجل، ولولا ستر الله اللى ساج ليه الحاج باشرى لمان مشى للخلا يجضى حاجته ما كان حد عارف كان ايه يجرى له .

.. وموكده وبس.. لا.. كان جلبه أبيض مثل الحليب.. عمره ما زعل منه أحد، ولا جلبه شال من أحد، حتى لو أساء ليهو، ومهما كانت نوع الإساءة أبداً ما شال من أحد، عشان كده واحد ما ادرى مينو (٤) سماه «أبو الفرح». فصار كل الناس بنادوه من

يومها «أبو الفرح» .

قلنا معا وكأنا متفقون على ذلك... آآآه .

ثم أردفت تدلل على كلامها : الولد حسب الرسول الصايع داك، أل ماله شغله غير بس يمشى ورا سعيد ود العمده، افتكر نفسه عمده، فكان يمشى منفوخ زى ديك نافش ريشه، فى يوم شاف محجوب وهو يلعب سنديب(٥)، ووجع كل الأولاد وبعدين مسك العريس من يده أل ماسك بيها رجله وشده ووجعه على الأرض.. الأولاد هيصوا وصفجوا وزعجوا.. محجوب محجوب ومسكه من رجبته وهو يجول ليهو : إنت شايف نفسك يعنى شديد وجوى (٦) ..؟

عاين ليه محجوب وجال : بإذن الله .

جال حسب الرسول : طيب أنا بالعب عريس.. تجدر توجعنى..؟

رد محجوب : إن شاء الله أوجعك ..

قال حسب الرسول : وإن ما وجعتنى تبجى مره ..؟

محجوب مارد عليه، لكن بسرعه شبك صوابع يده فى صوابع رجله ودار حواليه حسب الرسول المتعافى، ولفوا حوالين بعض، ووجفوا جصاد بعض مثل الديوك يتنططوا وكل واحد عينه فى عين التانى وهو بيفكر كيف يوجعه، وبسرعة البرج لف محجوب

يده حوالين راس حسب الرسول وضمها لجنبه وبعدين زجه جامد، وجبل ما يسند نفسه كان محجوب لف بسرعه ومسك يده اللى ماسك بيها رجله وشدها بجوة ودفعه بصدره، شندله على الأرض، وزاطط العيال وزعجت وصرخت.. هيهه محجوب.. هيه محجوب.. البطل محجوب ..

غلى الدم فى عروج حسب الرسول، جام ضرب محجوب من ورا ضهره ضربه شديده، تلفت ليهو محجوب وجال ليهو : إيه يا أخى.. دا لعب ماخناجه، ولا حرب.. عموما الله يسامحك، وبعدين سلم عليه وأخده فى صدره وجبّله وضحك .

هاصت الولاد تانى وزيطوا.. أبو الفرح.. أبو الفرح.. والله أحسن إسم يليج عليك يا ولد.. «أبو الفرح» .

بس من يومها وما أحد فى النجع صار يناديه باسمه الحجيجى، وكأنه من يوم ما تولد وهو إسمه أبو الفرح .

كتيره والله يا أولادى حكاياته.. الواحده تحكى شنو واللاشنو..؟

مره كان راكب ركوبته، وكان يفكر فى أمر شغل باله كتير، وما أخد باله لمان فات جدام بيت عمه عوض الزول أل كان جاعد جدام داره، وما نزل من الركوبه لغاية ما صار جدام الراجل.. غضب عوض الزول وظن أن الوليد ما يحترمه.. صرخ عليه :

إنت يا حمار ما شايفني؟! وضربه بعصايته الغليظة اللى يسوج بيها حمارته ضربه آلمت كتفه، قال ليهو وايده على كتفه : والله ما أخدت بالي.. معلهش.. سامحنى يا عم عوض..بعد يومين تلاته الراجل عوض الزول وجع من ركوبته فى المنطجه الخالية وشاله على كتفه لغاية دهبية الراهبات (٧)، وبعدين شاله بعد رجله ما تجبرت لغايه داره، بعد كده ظل يزوره فى داره كل يوم ويخدِّم على ضيوفه أل كانوا ياجو من كل النجوع يسألوا عليه، وما تركه إلا بعد ما صار سليم وشال الجبيره، ومشى على رجله.

ـ قلت منفعلاً : والله دا ما انسان، دا ملاك.. ما سمعنا عن أحد فى الناحية كلها زيه .

ـ قالت الجده سكينه : انتظر.. ما تتسرع.. كل إنسان ليهو نجيصه.. ما فى انسان كامل .

سألنا : وإيه نجيصته ؟

قالت : ما كان يشوف واحده ـ أيا كانت ـ إلا ويجول أحبها، ويظل يردد إسمها ويجول فيها جصايد، ويتصور إنه وجع فى حبها، أجول ليهو عيب يا وليدى.. عيب يا محجوب.. أبدا.. أعراض الناس يابنى.. ولو كانت أختك إنت ما ترضى أحد يتكلم عنها.. المهم أنه شاف «بتول» بنت عوض الزول، وكانت صغيره

بس كانت بنت فايره، واخده من أمها طولها وعرضها ومن أبوها عوض بياضه.. الوليد اتهبل.. جرى لى وجال لى :

ما اتزوج غيرها يا أمايا.. جوام أمشى لأمها واخطبيها لى.. طيب كيف أمشى ليهم وأنت ما معك مليم أحمر، المهم لما شافنى غير مهتمه بالموضوع مشى وحده لأبوها وطلب يدها.. الراجل شال جميله فى رجبته، لكن الأصول أصول.. جال ليهو يا محجوب إنت ما تعرف الأصول يا وليدى.. فى مثل هذه الأمور الستات هم اللى يتكلمون مع بعضهم، بعدين ييجى دور الرجال، ومع ذلك أنا ما حلاجى أحسن منك، لكن البنت مخطوبة لواد عمها .

الوليد أخد الموضوع ببساطة، واللى كان يجول أنا ما أجدر أعيش من غيرها نساها.. فى غمضة عين .

كل يوم يشوف واحده إن شا الله من ضهرها يمشى يجول.. يا سلام. حلوه زى الجمر،. أحبها.. أتزوجها.. لغاية ما يوم كان فى زيارة «حسين سلوم» فى داره، وبعد ما اتونس معاه وجام يمشى شاف بنته برامية.. مد يده وسلم عليها.. البنت كانت خجوله خالص، وما تتكلم.. بس مدت ليهو طرف يدها من غير ماتتكلم ولا تبتسم ولا نطجت بكلمه واحده.. وعلشان هو يضحك على طول ويتكلم مع طوب الأرض سأل نفسه : برامية ليه

زعـلانه..؟ ولما دخل الدار جـا سـألنى : يا أمـايا.. إيه رأيك فى براميه بنت عمى حسين سلوم..؟

سـألته باستـغراب : ليه تسـأل المره دى.. وانت كل مره تحب وتخطب وتفسخ وحدك..؟

أجاب : لا.. المره دى غير يا أماى .

سألته : كيف يعنى...؟

أجاب : بكره تمشى لأمها وتطلبيها لولدك محجوب .

أنا طول الليل أفكر فى الموضـــوع.. البنت حلوه وعـــاجله ومرغوبه، وما أدرى إذا كان أحد تكلم عليها أم لا، ولو رفضت إيه يكون أثره على محجوب خصوصا وإنه واخد الأمر جد المره دى.. المهم أول مـــا الشـــمس طلت من ورا الجـــبل أنا كنت فى دارهم، والحمد لله أمها وافجت بمجرد ما طلبتها لولدى، وجعدت تشكر فيه وف شهامته وإنسانيته، رجعت البيت وجلبى يفط من الفرح، وما جدرت أدخل الدار غير لما زغردت زغروده جابت كل ناس النجع .

- مبروك يا سكينه سيدى.. مبروك لولدك .

- والله عروسه زين لعريس زين .

- أحسن عروسه فى البلد .

- الله يتمم بخير إن شا الله .

وامتلأت الدار بالخير.. كل واحده رجعت دارها وجات باللى جادت به نفسها.. خروف صغير أو ماعز أو فراخ أو سكر أو شاى أو..

لكن الوليد ما كان له شغل، ولا كان عنده جروش عشان يتعّرس، وجعدت مشغوله بالموضوع، وركبنى الهم، الراجل حماه الله يستره، سألنى إيه يا سكينه سيدى.. مالك مهمومه..؟ جلت ليهو :

يا حسين يا واد عمى إنت ما غريب.. الوليد محجوب ما عنده شُغل، وما عنده جروش يتعرس بيها .

الرجل ضحك وجال لى : ما تشيلى هم يا سكينة سيدى، وشغله معاه فى التجاره اللى يشتغل بيها، وفى نجل الناس بمركبته بين النجوع، والبلاد، ولأنه ما كان عنده صبيان جال ليهو يا محجوب.. أنا ما عندى أولاد، اعتبر نفسك ولدى وشريكى، والحمد لله التجارة وسعت والرزج زاد وصاروا تجار حبوب معروفين فى البلاد، والوليد محجوب جوام بنى ليهو دار وكل شىء صار زين، لكن شىء واحد عكر عليهم حياتهم هو وبراميه زوجته .

كانت أجفاننا وكأنها حشيت بذرات الرمال، وبدأت رؤوسنا تسقط فوق صدرونا، أدركت ذلك «سكينة سيدى» فقالت

متسائلة:

هاه.. حلوه واللا ماحلوه.. ؟

قلنا : بكره نجيكى عشان تكملى لنا الحكاية .

تناثرت أقدامنا فوق الدروب الموصلة لدورنا فوجدت نفسى أسير منفرداً، وسرعان ما استعدت فى رأسى ما قالته سكينه سيدى لأجد سؤالا يثور فى رأسى.. من هى برميه التى حكت عنها سكينه سيدى..؟ قالت إنها زوجة ولدها، لكنى طول عمرى ما شفت ولا عرفت غير زوجته «شايه حسين»، وهى مجطوعه من شجره، ماليها أحد فى النجع، منين جت ما أعرف.. طيب ليه ما كلمتنا عنها «سكينة سيدى» ولا حتى عن أولادها إدريس وبشير، طيب إذا كان العم محجوب ليهو زوجة إسمها برميه فين هى.. وليه ما نشوفها..؟

نمت ليلتى محتضنا أسئلتى، وما أن صحوت حتى انفلت من أسر الدار إلى رحابة الدروب، ورحت أبحث عن رفقتى. فضل الكريم، وبحر النور وأحمد عواض ومحمد بسطاوى.. حملتنى قدماى إلى الساحة الواسعة قرب الجامع وأطلقت عواء الذئب الذى اعتدنا التجمع حال سماعه عند الساحة... أوووو.. أوووو، وانتظرت دون جدوى فجرجرت خطوى نحو النهر.. قعدت عند الشاطئ ومددت ساقى إلى الماء، غمستهما فيه فدغدغت برودته

جسمي، بينما كانت أسراب الأسماك الصغيرة تجرى تحت سطح الماء.. تتساقط عليها أشعة الشمس فتعكسها أصدافها التى تغطى أجسامها الإنسيابية الرشيقة.. تزايدت الأسراب حتى غطت مساحة كبيرة من سطح الماء.. لكن هل صحيح ما سمعناه عن السمك..؟ يقولون إنه أكل جدا من أجدادنا، فعافته نفوس أحفادهم.. أنا عن نفسى أحب أكله، وأحب حتى ريحته، وعندى استعداد أن أطعمه كل يوم حتى لو أكل كل أجدادى. وبينما كنت كذلك سمعت عواء الذئب.. أووو، عرفت منه صوت بحر النور، فأسرعت راجعاً إلى الوسعاية .

قلت لبحر النور : سكينه سيدى ضحكت علينا أمس وما كملت الحدوته.

ظل بحر يفكر لثوان، ثم قال : دى ما حدوته.. دى حكاية أبو الفرح .

قلت : يا أخى سمها حكاية، حدوته ما يهم، لكنها ما حكت لنا عن زوجة أبو الفرح اللى تعيش معاه الحين ولا عن أولادها بشير وإدريس.

وبينما نحن كذلك جاء بسطاوى وأحمد عواض معاً من ناحية الدرب الذى ينتبى بداريهما، فحكيت لهما ما ساورنى ليلة أمس.. قالا معـ[illegible]ـاى والله.. لك حق .

قال بحر النور : إنتم مهتمين جدا بالموضوع ليه، إحنا أمس مشينا لسكينه سيدى عشان ناكل فيشار، وما كانت حكاية أبو الفرح إلا حجة بس .

قلت : نعم، لكن الموضوع بهذا الشكل صار مثير، وخلانا مشتاقين عشان نعرف الحقيقة .

قال بسطاوى : ما عليك.. الحين نلعب وبعدين نروح نسمع بقية الحكاية، ترددت فى البداية لكنى انصعت لما قاله أحمد عواض :

الحين ما حتلاجوا سكينه سيدى فى البيت .

كانت أقدامنا قد حملتنا إلى النهر، ولكن بعيدا عن النجع، كما اعتدنا لما كنا ننتوى السباحة فيه كيف نشاء، بعيداً عن أعين أمهاتنا، وهناك وجدنا أعداداً كبيرة من رفقتنا من النجوع الأخرى سبقتنا.. ضو البيت وعجيب، وجبار، وأنجر و.. تخلصنا من ملابسنا وصرنا عراة كما ولدتنا أمهاتنا، لم أستطع وسط هذا لعدد أن استمتع بعرى، فألقيت بنفسى فى الماء، فى البداية تسابقنا إثنين إثنين، وانتهينا بعبور النهر إلى الجهة الأخرى والعودة بعد ملامسة الشاطئ، لم نكد نقترب من شاطئنا حتى سمعنا صوتا ودوداً يصيح باسم أول صبى لمست يده الشاطىء : أحسن بوشى.. إنت الأول يا ولد .

الابتسامة الواسعة على شفتيه تنير صفحة وجهه الأبنوسى اللامع.. مين.. عم أبو الفرح..؟ حمد الله على سلامتك.. جيت إمتى..؟

- بدرى.. واجف هنا من بدرى وانتم ما هنا، ولا واحد تلفت وراه،، كنت عاوز آخد هدومكم وأمشى.. اختفى بعيد، لكن أبيت أزعجكم .

كركعنا ضاحكين ونحن نقول له : طول عمرك إنسان طيب .

انتهزتها فرصة وسألته : إنت ماشى وين الحين ..؟

عاين لى وقال : ماشى البيت.. لكن ليه تسأل ؟

قلت : والله بدنا نقعد معاك شويه .

افتعل قلقاً خلعه على صفحة وجهه فبدا مرتاعا، ثم تساءل :

بدكم..؟ ياه.. انتم كتير يعنى..؟ طيب مين ومين يعنى..؟ كتير..؟ طيب ومنين أجيب ليكم شاى وفايش..؟ لالا.. أنا ما فاضى.. سلام عليكم .

انتشرت ضحكاتنا التى أطلقتها طريقته التى تكلم بها، وحركات يديه وقسمات وجهه، ثم قلنا له مهدئين من روعه : ما تخاف.. احنا ما عاوزين شاى ولا بسكويت و...

خبط على صدره بباطن يمينه، وأوسع من حدقتى عينيه وشهق قائلاً : جلت شنو (إيه).. بو إيه..؟ بوسكيت.. يا ولدى

احنا معدتنا تتعب من الچاكود (٨) وانت تجول ما ادرى شنو..؟

تعالت قهقهاتنا حتى استلقى بعضنا على ظهره ورفست سيقانهم الهواء، فيسألنا بعد أن هدأت عاصفة الضحك : لكن جولتولى عاوزين شنو..؟

قلنا : مانقول لك إلا بعد ما نشرب الشاى عندك .

وتأبطت ذراعه الأيسر، بينما كان بسطاوى يتأبط الأيمن، وكأنه وقع فى مأزق لم يجد منه مفرا سار مستسلماً وهو يردد : لله الأمر من قبل ومن بعد.. هو المعين على البلاء لا أحد غيره .

تطلعت إليه طويلا ونحن نسوقه إلى داره.. كهل فى الخمسين أو يزيد قليلا... شعره بين بين.. نصف أكرد.. أسود كله، ليس بينه شعرة واحدة بيضاء، ضاحك السن أبداً، جلد وجهه ناعم، لا ترهل فيه ولا فى رقبته.. يبدو شابا فى الثلاثين، هكذا يبدو كما لو كانت الأيام لا تؤثر فيه، وكأنه عرف تلك الخاصية فتعامل مع الناس حسب أعمارهم ليس حسب عمره هو، دائما كنا نحس بذلك ونحن نتعامل معه، لم نلمس إطلاقا فارق السن بيننا وبينه.

أجلسنا على الأرائك فى المضيفة الكبيرة ذات السقف المقبب، المطل أبوابها على الحوش، وجاءنا بأطباق البلح والفيشار والترمس، فأزحنا الأول جانبا، وكبشنا حبات الفيشار، فاهتز

جسده اهتزازا شديدا ثم سألنا : ليه ما تأكلون البلح.. فاكرين فيه غدا..؟ فأدركنا سبب ضحكه، إذ أحس فشل خطته، بأن نملأ بطوننا بالبلح فلا نستطيع تناول الطعام إذا ما قدمه لنا عندما يحين موعد الغداء، ليقسم لكل من يقابله أنه عزمنا على الغداء، وأننا أكلنا كل ما فى البيت من لحوم وطيور .

ضحكنا ثم أقسمنا أنه لم يكن قصدنا، فقال : ما دام ما كان قصدكم فإن شاء الله مافى غدا ولا وكل ولا شىء، ثم جلس بيننا يقلب ناظريه فينا .

أردت أن أدخل فى الموضوع فقلت له : إسمع يا عم أبو الفرح إحنا من يوم ما جينا للدنيا ماشفناك متزوج غير بنت عمك اللى ما نعرف عنها شىء ولا عن أولادك بشير وإدريس، فاحكى لنا حكايتهم من الألف إلى الياء .

هز رأسه وأدار عينيه بيننا ثم قال : أما عن الولدين فأنا مشيت لجدتكم دارا وأخدت منها بيضتين ورجدت عليهم عشرة أيام ليل ونهار لغاية ما فجسوا العيلين .

قلنا ونحن نكتم ضحكاتنا ونرسم أمارات الجد على وجوهنا : أنت حكيت من الآخر، وإحنا عاوزين نسمع الحكاية من الأول .

ظل صامتا لفترة طويلة وهو يقلب عينيه فى وجوهنا واحداً بعد الآخر، بينما كان يدفس كفيه بين ساقيه، وكأنه وقع فى

مصيدة، ثم تنحنح قائلاً : كان ياما كان .

وضع بسطاوى طرف سبابته على شفتيه المضمومتين، محذرا إيانا الإتيان بأى صوت حتى نترك له فرصة الكلام.. فبدأ قائلاً: تعلمون أن جدى «ضو البيت» جاء للنجع من دُنجلا بدرى، وتزوج من جدتى، وبعدين رجع دنجلا تانى، وظل فيها لغاية ما كبر خالص، وطلب من جدتى فى جواب أرسله لها إنه عاوز يشوفنى جبل ما يموت، فجهزت لى كل شىء، وركبت البوسته فى حلفا، ومنها لدنجلا، وجعدت هناك شهر شهرين وربنا نفخ فى صحة جدى، وتفاءل بوجودى عنده وأراد يزوجنى، لكنى أبيت، ولما رجعت النجع وجعدت مع نفسى لجيتنى كبرت فعلا زى ما جال جدى، ولما عينى وقعت على «برميه» بنت العم «حسين سلوم» جلت هى دى، وتزوجتها، ثم سكت هنيهة لما أحس أن صوته صار متهدجا من أثر حزن ألم به، تركناه لصمته، حتى استطاع السيطرة على حزنه فقال : عاشت معايا سنين وسنين.. بنت تجولوا لهلوبه.. طول النهار كنس وطبيخ وملو أزيار وتغييير رمل الدار، وعمل جُراسه للفطار چاكود وسوريد وكريد وكل ديو للغدا، يوماتى ما تمل ولا تكل، لكن كل ده ما ييجى جنب روحها الحلوه، الحبوبة.. غيرت ظنى من أول يوم لأنى كنت خايف تكون حياتها كلها نكد، وما تغير من

عبوسها أل شُفتها عليها يوم مشيت دارهم، لكن لما دخلت عليها يوم دخلتنا، ومديت يدى أرفع شالها اللى تغطى بيهو وشها، إلا سمعتها تجول لى وهى تضحك : أخدت مجلب يا مسكين.

أخذتنى المفاجأة، لكنى ضحكت وجلت ليها : أخدت أحسن مخلوجة فى الوجود .

الحجيجة البنت جلبت حياتى رأساً على عقب زى ما يجولون.. حتى الفجر خلتنى أصليه حاضر وفى الجامع، وأمشى للأرض بدرى، وأزرع جمح ودره، والخير عم الدار من يوم ما دخلته.. ما منعت شىء عندها عن الناس، لبن بجرتها، والبيض، والسمن.. كل الناس حبوها، لكنها مسكينة ما سلمت من ألسنة الحريم لما طال انتظارنا للولد.. سنة اتنين تلاته، ننتظر إن أرضها تطرح.. أبدا، صاروا يتودودوا عليها.. أرضها بور، مالحة، نخلة عجوز، جمارها خوّخ.. وهى مسكينة دب الخوف فى جلبها، وعجلها شرد وصارت ما تطيج كلام من أحد، وحاولت أطمنها إن كل شىء نصيب، وإن رحمة الله واسعة، وكرمه وفضله جريب، ولازم يكون عندنا أمل وما نيأس أبداً .

قال بسطاوى مقاطعاً : يا أخى إنت قلت فيها قصائد شعر، وأنت للآن ما قدمت لنا حتى الشاى .

قال أحمد عواض مقلدا لهجته : ياخى دى ماجصايد ساكت(٩) .

نظرنا مليا بازدراء مفتعل، ثم قال : حاضر.. باجيب ليكم الشاى يا جريو (١٠) منك ليهو، ووالله ماحتدوجوا الغدا، وانتم الجانيين على نفسكم، ثم زعق على ناس بيته : يابت.. ياست الدار.. اعملوا شاى .

زعق بحر الزين غاضباً فى وجه عوض الكريم : ضيعت علينا الغدا يا حمار .

كركع عوض الكريم ضاحكا وهو يقول : أنت صدقت يا عبيط إنه كان حيغدينا.. إنت ما عرفت عمك أبو الفرح للحين يا مسكين. ثم موجها الكلام له متسائلاً : وبعدين.. إيه حصل لمان حياتها اتقلبت غم ..؟

قال : المره كان إحساسها صادج، لأن أماى وأخواتى البنات ماكانوا يتركون مناسبه إلا ويحرضونى على الزواج عليها عشان الخلف والذريه والعزوه والكلام أل يجولوه ده.. يخرب بيت الخلف اللى حيخرب بيتنا.. البنت سمِحة ومحترمه ومطيعة ومؤدبه، وممكن الخلف ييجى بعدين، وبعدين ممكن العيب ما يكون منها، يمكن منى أنا ما منها هى.. مين يعرف ؟

جلت ليهم : الصبر يا ناس. لكن أبداً ما بطلوا زن، والزن

على الدماغ أحمى من طلج الرصاص.. أخوكم سلم.. رفع الرايه البيضا .

قام بسطاوى فجأة من مكانه ووقف أمام الرجل وراح يبحلق فى وجهه، ثم أطلق صوتا يعبر به عن دهشته .. بووو..

قال أبو الفرح متسائلاً فى دهشة : الزول دا بالله عليكم ما مخبول .. ؟

قال بسطاوى موجها كلامه له : بالله عليك أنت كان معاك رايه بيضا واللا قلعت سروالك وعملته رايه .

أحسسنا بالخجل فغرقنا فى عرقنا، لكن الداهية أبو الفرح جعلنا نغرق فى الضحك إذ أجابه قائلاً : طيب أنا اتصرفت، لكن أنت كنت حاتعمل شنو وأنت من غير سروال، ثم راح جسده النحيل يهتز بشدة وظل كذلك لثوان حتى سكت، ثم أردف قائلاً : المهم فى النهاية وافجت أماى اللى جامت من توها ومشت لجريبتها بتول بلال وطلب منها بنتها لى، لكن يشاء السميع العليم إنه ما يخزى برميه.. فى نفس اليوم البنت حست بإحساسات غريبه.. أول مره تحس بيها.. جالت لى نفسى فى الطمى الناشف، وإن نفسها غامة عليها.. أنا ما أديت للموضوع أهمية لغاية ما الشمس غابت، المسكينة فضت اللى ف بطنها، والدنيا لفت بدماغها، وطلبت منى تانى طمى ناشف، جريت للنيل

ولميت لها حصى الطمى، وبعد اسبوعين تجريبا جالت نفسى فى التركين (١١) .

سبحان الله.. عشر سنين وأرضها ما تنبت، ولما المكيدة بدأت تتنفذ يشاء المولى سبحانه وتعالى يسلمها منها.. الواحد يجول إيه فى اللى حــصل ده.. ؟ لا.. ومش كــده وبس دا ربنا أراد يجول لأماى ولحريم النجع إن أرضها عفية وشديدة، لأنه رزقها بتوأمين.. تفتكروا دا شىء عادى..؟!! المهم أماى سمعت الخبر وكأنه صابها الخرس.. لا تتكلم.. صمم بكمم.. يا أماى كيت، يا أماى ميت.. أبدا.. بس تكلم نفسها وتجلب إيديها .. وتبرطم شفايفها : كيف تم دا..؟ طيب إيه أسوى مع ناس بتول.. ؟

يا فضيحتى.. يا چرستى.. طيب إيه أعمل، ولوين أمشى..؟

شهر واتنين وخمسة وبرمية بطنها بجت جدامها شبرين، وما جادره تتحرك إلا ببطء شديد، لكن لأنها جدمت السبت مع كل الناس فى النجع ما فى واحده تخلفت عن خدمتها.. دى تخبز وتعمل الكل ديو والفايش، ودى تملا الأزيار، ودى تطبخ.. المهم البيت كان تمام التمام، وفى اليوم الموعود جالها الطلج.. صرخت.. بووو.. وف. لحظة انشجت الأرض عن معتوجه، والله أنا مــا أدرى جت من وين.. زجت البــاب ودخلت وهى تصــيح حضروا المويه الدافيه.. جوام يا بنات، ودخلت عند برمية وهى

تردد : بركة يا بنيتى.. إحزجى.. إحزجى يا براميـة.. دجايج وكانت بتسحب راس الوليد.. أخذته بين يديها وزغردت وصلت على الحبيب، ولمان جت تجطع الخلاص لجت راس تانيه تطل عليها.. سحبته بالراحه وزغردت زغرودة تانية طويله ما أحد يجيب آخرها، ولسانها ما بطل صلاه على الزين المصطفى .

والبيت اتملا.. ما بجى حد فى النجع.. كله فى الدار وحوالين الدار..

- مبروك الولاد .

- يتربوا فى عزكم .

وأمى خافت من العين، ومن المشاهرة.. ولعت البخور، وطبعا فرحت برميه فرحة ما أجدر أوصفها مهمان حاولت.. رجعت عشر سنين ورا.. صارت شابه صغيرة.. جسمها شد واتدور، ووشها ردت فيه الروح، والله صارت عروسه فى العشرين.. الضحكة تخرج من جلبها تنور سنتها، وجلبها صار أكبر.. اتسع لكل الأطفال.. لكل الناس.. كل يوم تسوى فيشار وتبل ترمس وتملا أطباج الخوص وتوزع على الناس ..

أسألها : ليه كل ده يا براميه.. ؟

تجول لى : يا محجوب ياخوى أنا كل يوم كنت أموت، الفكر والهم كانوا يطحنونى.. كنت جربت أجن، فحمدا لله وشكرا

لفضله.. ودا أجل شيء أجدر أعمله لله سبحانه وتعالى إللى جبر بخاطرى وما خيب ظنى ورجائى.. أنا اللى ما يئست أبداً من رحمة الله اللى رزجنى من فضله .

لكن يبدو أن الفرحة كانت أكبر من جلبها الرهيف.. كانت أصعب مما يتحمله جلبها، لكن الغريب أنها أبدا ما اشتكت، ولا بينت أى شيء، لا جلج، ولا خوف ولا وجع، بس تطحن ساكت.. تاكل فى نفسها، بالضبط زى ما حصل منها جبل ما ربنا يرزجها بالولدين.. كتمت الألم فى جلبها.. ما جالت .

.... بس ترفع عينها للسما وتجول يارب، وفى يوم من الأيام صحيت من النوم لجتها راجده جنبى، والشمس راجده فى جُبة السما، وارسلت أشعتها للكون.

إيه اللى حصل لبرميه.. أبداً ما نامت للحين.. ما معجول.. أصل دا ما حصل أبداً.. زعجت : يا برميه.. يا برميه. أهزها.. أصرخ فيها.. أزعج.. برمية هوى.. يابنت الحلال.. ردى على.. وبعدين..!! جربت كفى لمناخيرها، لخشمها لكن أبداً.. ما فيه نفس، رفعت يدها لفوج وتركته، وجع ساكت.. صرخت زعجت : آآآى.. معجول يا برميه.. معجول يابنت الحلال؟ تموتين بعد ما الخالق يعوضك بعريسين اتنين.. تموتين ساكت من غير حتى كلمة وداع.. من غير سلام..؟ لا حول ولا جوة إلا بالله.. هانت

عليكى العشرة، وهان عليكى الصغيرين.. الخَضار..؟ لمين تتركيهم وترحلين يابنت الناس..؟

وجعدت جنبها.. كان لازم أجعد أفكر.. يااه.. حتى الآم الحشرجه خاضتها وحدها فى حضن الليل وأنا غرجان فى النوم، وكأنها اختارت الوجت دا بالذات عشان ما تزعج أحد، سلمت الروح وتركت دنيا الناس بعد ما تعب جلبها من ظلمهم وجورهم، وبصيت للولدين ولجيت الدنيا تدور بى وتدور، وترمينى فى صحرا وسيعة، مالها أول ولا آخر، وأنا وحدى.. براى (١٢) وسط التيه، وأدور حوالين نفسى وأدور، وأرسل عينى لبعيـ يـ يـ يد، وما الاجى إلا الفراغ وصفار الرمل، وتانى يعاودنى الفراغ.. من وين أمشى..؟ من هنا..؟ أو من هنا..؟ كل الاتجاهات واحدة.. فضاااا.. آآآه يابت العم، تركتينا بدرى جبل ما تتهنى بشبابك وتفرحى بأولادك وانت تريهم يكبرون أمامك.. أولادك اللى انتظرتيهم سنين طويلة، فليه الرحيل بدرى..؟ ولمين تتركيهم..؟ مين ليهم بعدك..؟ أنا..؟! ما انفع.. الراجل ما ينفع.. ما يصلح للحضانه.. الخالج ما هيأه لذلك، لا نفسيا ولا جسديا ولا من أى جهة.. روحه ضيجه، ما يطيج السهر والتعب والبكا و... طيب وبعدين.. إيه العمل..؟! لو كنت وحدى ما كان فيه مشكلة.. المشكلة فى الصغيرين.. الرضيعيين..

وآآآآ.. وآآآآ

رجعت من سفرى البعيد على صراخهم.. الاتنين سوا.. سوا يصرخوا.. سوا يبكوا.. سوا يضحكوا.. ياربى.. إيه العمل..؟ أخدتهم فى حضنى.. دفستهم فى صدرى، لكن ابدا ما سكتوا، تجول إنهم حسوا إن أمهم ماتت، تركتهم ورحلت.. !!

وآآآ .. وآآآآ .

وبعدين..؟! حسيت جلبى يبكى، والدموع تحرج جوفى.. ياربى رحمتك.. جريت.. مرجت لأوضه الكانون، غليت شوية موى وخففت لبن البجره، وسجيت الولدين، سكتوا.. الحمد لله، وغمضوا عينهم.. ناموا.. غطتهم بالحرام، وجريت للصندوق.. سحبت الجلابيه البيضا والعمه البيضا، بعدين سحبت الركوبه من الزريبه، ساعتين طوال وهى تمشى فوج المدج ناحية النجع البعيد فى آخر البلد .

ايـ يـ يـ يه.. زمن يا ولاد ليه تفكرونى ..؟

ثم دس يده فى احد جيوبه وأخرج علبة سجائره المعدنية وأخذ منها سيجارة دسها بين شفتيه، وأشعل طرفها الآخر، وشفط نفسا طويلا، ثم زفر دخانا رماديا التف حول أعناقنا، وظل هكذا لدقائق معدوده، ثم القى بعقب السيجارة من النافذه لترقد فوق الرمال حتى أكلها النار .

وبعدين.. ؟

كسلت الركوبه.. تعبت.. نخستها بكعبى.. شويه وطلت على بيوت النجع، وجبو الجامع الأخضر والمضيفة .

جُرص الشمس ظهر ورا الغمام الرمادى الغامج، وبسرعة انتشرت، نشرت النور وزاحت لسعة البرد.. الحمد لله.. ووجهت الركوبة لدار «حسين عروج» ابن عم أبوى، أل مات وأنا صبى، وترك زوجته «حسيبه بحر» أل أبت تتزوج بعده من كل اللى تجدموا لها عشان تتفرغ لتربية بنتها «آشا» وكانت طفله صغيره، بنت تلات سنين.. كبرت وصارت عروسه، تنتظر واد عمها المسافر لبر مصر المدينه.

وبعديـ يـ يـ يـ ين، قالها ثم سكت طويلاً، وانتظرنا وأعيننا متعلقة بشفتيه، والمسكينة طال انتظارها، وأبت توافج على الزواج من غيره، لغاية ماجا واحد من مصر وقال لهم إن واد عمها ال منتظراه تزوج من جورباتيه(١٣)، أمه سمعت الخبر وبو صرخت ولطمت وجطعت هدومها ولبست السواد، وجبلت العزا فيه، وآشا المسكينه دفنت حزنها فى جلبها وظلت تنتظر أى واحد يتجدم لها وينقذها من دوامات حزنها .

الشمس صارت وسط السما ترسل نارها على الأرض، وأنا ما صدجت وصلت نجع النبرو، لكن كان لازم آخد معاى أحد من

عندهم معاى.. ميلت على دار خالها «صابر عجيد» وحكيت ليهو حكايتى، وطلبت منه ما يجيب سيرة عن موت برميه، وفى الطريج أخذنا معنا الحاج عثمان تود وجصدنا دار «حسين عروج» كان الباب موارب زى العاده، زعج «صابر عجيد» على المره.. هسيبه هوى (١٤) كانت العجوز جاعده تحت نخلتها، أما آشا فكانت فى أودة الخبيز تحضر الغدا

- إيو ووصابر.. مرهبا.. تعال ادخل .

- معانا ضيوف يا حسيبه .

تعالى يا محجوب، تعالى يا حاج عثمان تود.. اتفضلوا.. اتفضلوا فتح لنا المضيفة ودخلنا وبعدين جت حسيبه وجعدت بينا، وجالت أول ما جعدت إن آشا تحضر الغدا، وما فى كلام ولا حديت إلا بعد الأكل .

قال صابر عجيد : ومين ال إننا ماجيين نتغدى عندك ..؟

قامت المرأة وخرجت وجات ساحبه وراها بنتها أل دخلت وهى تخفى وشها بطرحتها.. سلمت علينا وخرجت، وظلت حسيبه عبدون تعاينا، وبعدين ظلت تنظر لصابر عجيد وكأنها تسأله إيه الموضوع.. ؟

وبعدين لما الصمت طال، صابر عجيد اتنحنح، وعاين لى جبل ما ينطلج فى الكلام.. جال : الزواج سنة الله ورسوله، واحنا

اليوم هنا لطلب يد أختنا «آشا عروج» لأخينا محجوب، على أن يتم ذلك الحين، لظروف خاصه جدا بالعريس وأهله وناسه، وبمجرد ما يتم كتب الكتاب ياخد العريس عروسته لداره، وما حنجدر نجول لكم على ظروف العريس إلا فى الوجت المناسب .

قالت العجوز : إيه اللى تجوله ده يا عجيد.. إنت لازم اتجنيت واللا اتخبلت.. حد يجول الكلام ده يا وليدى .

جال صابر عجيد : والله يا خالتى دى شروط العريس، وبعدين يا ستى بعد كتب الكتاب صارت المره حلاله، وما حد يجدر يلومه ولا يلومها، وباكر بدرى باوصلك لغاية عندها فى نجع الجزيرة.. بس اليوم لازم تمشى معاه.. هاه.. جلتى إيه..؟

المره حسبتها فى رأسها بسرعه، سكتت شويه وبعدين جالت: والله يا وليدى محجوب ولدنا، ما غريب، والبنت بنتكم وأختكم وأنا متأكده أنكم ما حتعملوا غير صالحها.. لكن ما فى واحده فى بر النوبه كلها تزوجت بالطريجه اللى تجولوها.. الناس تجول إيه علينا..؟

قال الحاج عثمان تود متمهلاً وبتؤده كعادته.. مالك إنت وكلام الناس يابنت الحلال..؟ ومين نفعها لما واد عمها تركها معلجة وتزوج الجورباتيه..؟ مين تحرك من البلد كلها..؟ يا شيخة بلا ناس، بلا بطيخ. وبعدين نظر لعجيد وجال : ياللا يا عجيد

على خيرة الله.. جوم جيب المأذون.. جوم يا راجل .

سألت حسيبه : وبرمية يا محجوب.. مرتك..؟

جال عجيد لا تخافي يا حسيبه.. محجوب ابن حلال، وابدا ما حتندمي لو زوجتيه بنتك .

الشمس حولت الدنيا لنار جهنم.. الرمل تحت الرجلين تجول صهد، جريت أجيف في الضل انتظر العروس أل جات تمشي جنب أمها، تخبي وجهها في شالها الجطيفة، ما تشيل عينها من الأرض، تمسك جلابية أمها زي طفلة صغيرة تخاف تضيع، رجليها تضرب في بعضها، ولمان وجفوها على المصطبة جدام دارهم عشان يركبوها الركوبه كان جسمها يرجف تجول ضربتها الحمى.. المهم المسكينة أول مرة تركب ركوبة، خافت، كلبشت يدها في وسطي، والركوبه حطت رجليها في الطريج وجرت مثل الطلج، تجول بنت الكلب كانت فرحانه بالبنت أل على ضهرها، والعجيب في الموضوع إن المويه كانت راجده في النهر ساكت، كأنها نايمه، لا تتحرك.. نوم حزين، تبص عليها ما تظنها مويه.. تجول طين أو عجين، حسيت بالخوف، خوف معجون بحزن يعصر الجلب، ولجيت نفسي أكلم نفسي : آآه يا برميه.. انت تعرفين جبل أي أحد إني ما فكرت أبداً أبداً أدخل واحده الدار إلا علشان الصغيرين.. مين يراعيهم بعدك وهماله

لسه خَضار ؟!

نظرتني آشا مندهشة، وجبل ما تسألني سمعنا صراخ وعويل.. نحيب وعديد يجينا من بعيد، واضرب عيني ناحية البيوت، لمحت حمد واد مختار نُجد، زعجت : ووحمد هوووي.. يا حماااد .

جاني الولد يجري.. ركبته الحماره وجلت ليهو : اتركها عند الدار . ولفيت من بعيد ودخلت الدار من باب الحريم، وفي الطريج جلت ليها : الناس تبكي برميه.. البنت فنجلت عينيها وفتحت خشمها وظلت على الحاله دي دجايج.. أنا بيني وبينكم خفت يكون عجلها مرج.. زعجت فيها : إيه يابنت الحلال.. مالك..؟! بربشت بعينيها ونفضت رأسها.. ردت لي روحي، جلت الحمد لله، وجلت ليها : بصي يابنت الحلال، وحكيت ليها حكاية برامية أل ماتت وهي نايمه، وما حسيت بيها إلا في الصباح لما تأخرت في النوم على غير عادتها، والصغيرين أل صاروا يتامى، وليه فكرت فيها هي بالذات دون غيرها، والحين تدخلي الدار وتلبسي الشُجة وتخرجي تاخدي العزا في براميه، وبعدين مشيت للمضيفة تتلجاني عيون الناس، لكني أهرب منها لبعييد يد .

الهوامش

(١) تستهل بها الحكايات في النوبة الكنزيه، وهى تقابل : صلوا على النبى فى الأقاليم المصريه والقاهرة .

(٢) حلى ذهبية خاصة بنساء النوبة .

(٣) اللوبيا .

(٤) مَن .

(٥) الحلجة

(٦) قوى .

(٧) كانت جماعات من الراهبات الألمان يقمن بالتبشير للدين المسيحى، وكن يقدمن بعض الخدمات للأهالى.. مثل العلاج، وكن يُقمن فى عوامات على النيل كان النوبيون يطلقون عليها الدهبية .

(٨) نوع من الملوخية، تطهى من أوراق بعض النباتات الخضراء مثل اللوبيا .

(٩) يقصد أنها مجرد كلام

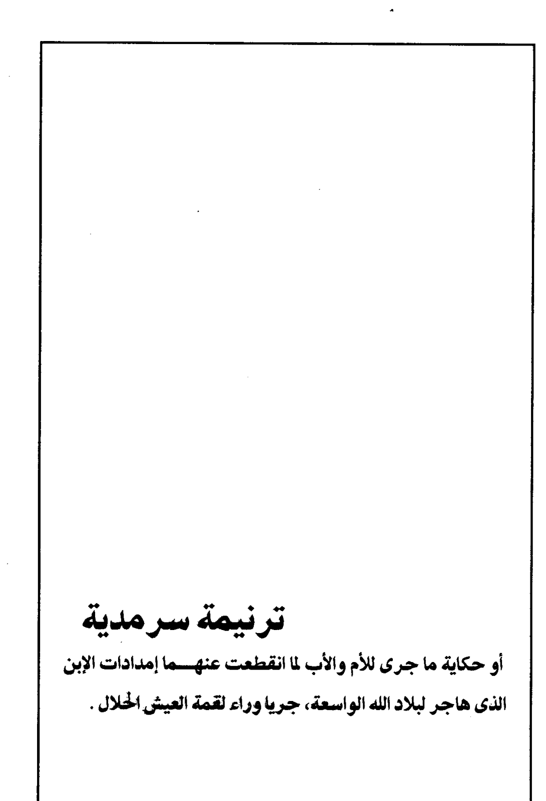
(١٠) الكلب الصغير .

(١١) سمك صغير جدا مملح.. يشبه الملوحه المصريه .

(١٢) براى بمعنى وحدى .

(١٣) لفظة تطلق على كل شخص غير نوبى

(١٤) يا حسبيه .



ترنيمة سرمدية

أو حكاية ما جرى للأم والأب لما انقطعت عنهــما إمدادات الإبن الذى هاجر لبلاد الله الواسعة، جريا وراء لقمة العيش الحلال .

حمل الصغير همومه فوق كاهله، تخب قدماه فى الدرب الطويـ يـ يـ يـل الذى اعتاد أن يقطعه كل صباح فى طريقه إلى مدرسته، التى تبعد عن نجعنا نصف ساعة سيراً على الأقدام.. تتدلى مخلاة الكتب من إحدى كتفيه فتتطوح للأمام وللوراء مع خطوه المضطرب .

كان الوقت مبكرا فانحرف يمينا وسار فى اتجاه التل الذى يتوسط نجعنا ويشطره نصفين.. تل عال تغطيه الخضره ونخيل البرتموده وأشجار السنط .

كسا العرق وجهه وانسال على قفاه وسلسلة ظهره، وبلل كفيه.. هرول إلى بقع الظل التى يرميها سعف النخيل وأوراق الشجر تحتها.. تقرفص زافراً آلامه، علّه يخلص صدره من ضيق آخذ بخناقه، ثم أرسل نظره إلى الجزيرة فى وسط النهر، والتى تطفو كل عام وقتما يغيض الماء، وينقص منسوبه.. يمتلىء ناسناً فرحاً، وتسبح النساء إليها بجلابيبهن بعد أن يملأن

ذيولها بالهواء. ويفردن أجسادهن وراءها وهن يضربن الماء بأرجلهن ..

يُقسمن أرضها إلى أحواض ويبذرن البذر وينتظرن فى قلق وقلوبهن مفعمة بالأمل فى محصول يكفيهم بقية العام، ثم سحب نظره إلى نجعه الراقد شيوخه وعجائزه فى النوم.. تطل عليه واجهات الدور بزخارفها الغائرة والبارزة.. يتمطى طاردا كسل النوم الذى امتد طوال ساعات الليل الداكن الغائب عنه القمر، فيتعملق الخوف فى نفسه.. تُفتح أبواب الدور لينفلت منها الرجال حاملين الشراشر والطوارى والمقاطف وأحبال اللوف، بينما البعض يمتطى ركائبهم إلى أراضيهم البعيدة.. والصبية تتدلى مخاليهم من اكتافهم وهم يسرعون إلى مدارسهم، والصبيات يتجهن إلى النهر لملء جرارهن، بينما الأمهات يبدأن فى إعداد طعام الإفطار أو نظافة الحجرات وتغيير رمال أرضياتها. والدروب تتلوى بين الدور، تربط بينها وبين الدرب المستقيم الذى يربط النجع بباقى النجوع.. كم تبدو ضيقة، وكم مرة مشيناها ذهابا وإيابا. من المدرسة وإليها وإلى الأرض الزراعية والنهر والمعابد والموردة ومكتب البريد و..

انهمرت عيناه بالدموع ثم راح يهنف حتى اهتز صدره لما ترك لبكائه العنان، لكنه سرعان ما يمسح دموعه ويهب واقفا

ليهرول نازلا المدق إلى الطريق المؤدى للمدرسة فى آخر النجع، تاركا سياط الحر تجلد رأسه، بعد أن انفلت قرص الشمس المتوهج من مكمنه وراء الجبال، والتى تجىء منها كل صباح .

تلتقط عيناه من البعيد رفرفة العلم من فوق السارى العالى المنتصب وسط حوش المدرسة بألوانه الثلاثة، والفصول الواطئة المرصوصة حوله، ورفقته يصطفون فى نظام بديع، تحوطهم أحواض الزروع تنشر أريجها فى الفضاء، ومكتب البريد يقبع بجوار المدرسة، وعباس أفندى يقف منحنيا، ممسكا بالقلم بيد واليد الأخرى دفترا يسجل فيه أسماء أصحاب الطرود المرصوصة أمام لمكتب، بينما موزع البريد بأعوامه الخمسين وجسده المترهل وطاقيته المزركشة ينفلت من حوافها شعره الفضى المهمل.. يستعين بحجر يقف فوقه ليمتطى إتانه، يلف بها النجوع موزعاً على أهلها خطابات انتفخت بها حقيبة مقددة الجلد،ضمنها مرسولها أشواقهم وحوالات بالمصاريف الشهرية .

تجرى «الركوبة» أحيانا وتتكاسل أحيانا فينخزها بحذائه القديم البالى، تتلوى مع الدروب دون أن يوجهها، فهى تعرف طريقها وتعرف أين تقف فى كل نجع.. أمام الجامع أو باب دكان أو أمام دور معينه، يراه ناس النجوع مقبلا ناحيتهم فتهلل وجوههم وتنطلق السنتهم مرحبة به.. يلتقط رزمة الخطابات

ويناولها أحدهم قائلاً :

ـ جوابات النجع يا أخوى.. وزعها بمعرفتك .

يحاولون أن يستبقوه قليلا ريثما يشرب كوبا من الشاى أو الابريج (١) .

ـ استرح قليلا يا بسطاوى أفندى .

ـ اشرب شاى الضحى معنا .

كل يوم يراهما .. عباس أفندى وبسطاوى أفندى قبل أن يلج باب مدرسته ويأخذ مكانه بجوار زميله فى المقعد، ليحملق فى السبوره التى ملأها مدرس الرياضه بحروف تعلوها أرقام صغيره.. س٢× ص٣ + س ص × ع، يحاول متابعة الشرح واستيعاب الحل دون جدوى، فآثر أن يعود إلى الوراء، ليقف فى المورده بين جده وجدته ليلوح لأبيه الذى ركب البوسته وسافر للبعيد.. أخذه جدى إلى حضنه، وجدتى ناحت وبكت وهى تضرب صدرها ..

يالفراج الطويل يا ولدى .

إهىء إهىء إهىء

انفلت من حضنها ليهرول إلى الصقالة، مبعدا وجهه عنا حتى لا نرى دموعه التى خانته وانهمرت لتبلل خديه.. أطل علينا من فوق ظهر الباخرة مودعاً، وقبل أن ينطلق صفير البوسته،

وتتجه مقدمتها نحو الشمال يزعق قائلاً :

دعواتك يا أمي.. سلام يا أبى .

ـ مع السلامه يا وليدى.. مع السلام ياحمد .

ـ ستوحشنا كثيرا .. لا تتأخر علينا فى الخطابات .

أخذته الغُربه.. أغرقته فى قرارها، لكن الحقيقة تقال.. تذكرنا لسنتين طويلتن.. كل اسبوع خطاب يحمله أشواقه لنا ولهفته على رؤيتنا ..

كيف أحوالكم.. عاملين إيه..؟ طمئنونى عليكم وأخبار الوالده وصحتها وأخبار علوب ومدرسته، وأنت يا أبى..؟ وناس النجع..؟

وفى أول كل شهر.. مرسل لكم حوالة بمصاريف الشهر، وطرد خلال الشهر يحويه خيرات الله التى نفتقدها فى النجع.. فماذا حدث لك يا أبى بعد هاتين السنتين..؟ هآه.. ماذا حدث..؟ يحمل جده وجدته السؤال ويهرولان إلى دار الآتى من بلاد الشمال البعيدة التى غيبته طويلاً فى طياتها.. ينتظران حتى يرخى الليل سدوله، فيخرجان فى ستر حلكته، ليمشيان فى خطو مضطرب وجل، وقلباهما مفعمان بالأمل .

ـ المهم يكون ولدنا بخير .

ـ جلبى واكلنى عليه يا عثمان .

ـ ربنا يطمنا عليه بإذن الله .

- إذا كـان بخـيـر فلمـاذا لا يرسل خطاب.. خطاب فـاضى يطمنا عليه..؟

ثم تروح أمـه تدعو لـه مع كل خطوة تخطوها : يارب.. إحمـه يارب.. إحفظه من كل سوء .

يُفتح البـاب ويدخل عـثمـان كـارا متـوكـئـا على كتف زوجـه، تقابلهمـا زوجـة الآتى من الشمـال مرحبـة، ويجىء زوجـهـا على صوتها ليأخذ الشيخ إلى حضنه .

- حمدا لله على سلامتك يا كرم الله .

- أهلين عم عثمان كارا .. أهلين خاله دارا .

- الله يحميك من كل سوء يا وليدى .

- بارك الله فيكم .

- والله يـا ولدى جلبنا واكلنا على ولدنا، مـا وصلتنا جـواباته من سنه، سنه كاملة لا مصاريف ولا طرود..

يغرق الآتى فى عرقـه، ويضطرب لثوان، ويعمل فكره بسرعة، عله يلتقط قشةيتعلق بها، ويأتيه الفرج فينطلق لسانه : حـمـد بخيـر.. فقط هو خـالى شـغل من مدة طويلة، وحـملنى سـلامـاته لكم، وطلب منى أن أسـألكم الدعـاء له وأن تسـامحـوه، وإن شـاء الله بمجرد أن يستلم عملاً سوف يرسل لكم كل شىء .

- يعنى هو بخير ..؟

طمأنهما عليه، ثم زعق على زوجته أن تجيء ومعها نصيب العم كارا وزوجه من الزياره.. لم يجد مهربا من الحاحهما على الاطمئنان عن صحة ولدهما إلا هذه الطريقة .

جاءت زوجته بلفافة متوسطة وناولتها للخالة دارا وهي تودعها وزوجها عند الباب، وما أن عادت إلى زوجها حتى وجدته غارقا في تفكيره، ومسحة من الحزن تطل من عينيه .

ـ إيه.. مالك.. كفى الله الشر ..؟

يزفرألما، ثم يقول : ماذا أقول.. الله يلطف بعبيده.. تنظره قلقه، وتعاود سؤالها في إلحاح : هل الأمر مؤسف إلى هذا الحد..؟ .

ـ أي حد .. ؟

ـ أنت لا ترى مدى الأسف والضيق المرتسمان على وجهك .

يومئ برأسه ببطء وهو يقول : حمد يا برامية يوشك أن يفقد عقله .

ضربت صدرها بباطن يمناها وهي تشهق قائله : ماذا ..؟!

ـ اتهموه بالسرقة ليأكلوا عليه حقه.

ـ حقه..؟

ـ أوهموه أنهم يدخرون له راتبه لحين الحصول على أجازته، ولما أرادوا التخلص منه اتهموه بالسرقة، وهددوه بالسجن، ومنذ

ذلك الحين وهو يعيش بين القهوة والجمعية فى ذهول .

- الكلاب.. طول عمرهم يسرقوننا .

- المهم أن نحاول أن ننقذه من هذه الحال وسوف ننجح .

- إنك لا تعرف ما يعانيه أبوه وأمه منذ انقطاع رسائله عنهم.

★ ★ ★

ما أن ينتهى اليوم الدراسى إلا ويجرى علوب خارجا من مبنى المدرسه إلى مكتب البريد، ليسأل عباس أفندى عن خطابات أبيه، وعلى الرغم من معرفته بإجابته سلفا، لكنه يصر أن يسأله ويتأكد من عدم وصول أى منها، وما أن تطأ قدماه عتبة الدار حتى تسأله جدته سؤالها المعتاد : ألم يرسل أبوك خطابا يا علوب..؟

فلما يجيبها بالنفى، يقول الجد : ربما يكون عباس أفندى أخطأ أو لم ير الخطاب..؟ فلما يسمع صمت حفيده يقول لزوجته:

هيا بنا يا دارا نتأكد بنفسنا، فيقول علوب :

يا جدى لا تضحك على نفسك.. زمان لما كان أبى منتظما فى رسائله كانت تأتينا إلى دارنا دون أن نسعى إليها، لكنه الآن معذور.. خالى شغل.. ومع ذلك فإن الجد كان يصر عى الذهاب إلى مكتب البريد ليتأكد بنفسه عما إذا كان خطاب ابنه وصل

من عدمه ..

وما أن يصير وحده فى الدار حتى يعود برأسه للوراء.. خَبر تواريخ وصول الطرود من أبيه،. فيسرع بامتطاء دابته ويجرى بها إلى مكتب البريد.. يترجل عنها، ثم يربطها فى أحد الأسياخ الحديدية بنوافذ مكتب البريد لينحنى على الطرود المرصوصة بجوار بعضها، تتقافز عيناه فوق الأسماء المكتوبة على كل منهما.. يلتقط فى النهاية ما كتب عليها إسم جده.. الشيخ عثمان كارا.. تحتضنه ذراعاه ويعود به فرحا إلى الدارَ.. يتقرفص جداه وهما يفرغان محتوياته أمامهما، ثم تقوم الجده دارا بتقسيمها إلى أكوام وهى تردد :

دى بتاع بسطاوى، ودى بتاعة شايه، ودى بتاع ضو البيت، ودى سليمان سكينه، وده عثمان تود، ود....

يقول عثمان كارا منبها : اياك أن تنسى أحدا يادارا .

ترد بصوت يغشاه الفرح : أنسى كيف..؟ أبدا والله ولابيت أنساه، ثم تحمل الطرد شبه فارغ إلى حجرة الكانون، لتجىء بصينية الشاى وتضعها أرضا بينها وبين جدى ليعيشا فرحتهما بابنهما الذى لم يغيبا عن باله أبدا، وكيف ينسى وقد سافر إلى بلاد الغربه من أجلنا..؟

تتساءل الجده وقد افتر ثغرها عن بسمة أبانت صف أسنانها

اللؤلؤية،

أما أنا فقد تضاعفت فرحتى لما التقطت جدتى ذات مره بضع كراريس وقلما وناولتها لى، فرحت اتقافز فرحاً بها، حتى أننى لم أتركهما طوال يومين، ولم أقرب المذاكرة خلالهما حتى يتـقنت من أن كل زمـلائى رأؤها، بعدها اعتكفت فى حجرتى لأختلى بكتبى وجزء «المجادلة» لحفظ سوره وكتاب الفقه وكتاب «قطر الندى وبل الصدى» فى النحو أما الحساب فأعوذ بالله.. كان الله فى عونى.. لم أستطع هضمه.. مالى تقل عليه، لكن ما أجمل الشعر وما أبدع صوره .

هون عليك وجفف دمعك الغالى

لا يجمع الله بين الشعر والمال

★ ★ ★

تنحدر الشمس نحو الغروب تدريجيا، لتهب نسمات الصيف حلوة رقيقة.. يتمايس سعف النخيل وأوراق الشجر، فتخرج النساء والبنات ليتحلقن الجدات أمام أبواب الدور، ليعقدن حلقات الونسه.. أما الصبية فيتجمعون عند الوسعاية وراء الجامع، بينما الرجال يهرولون إلى الداخل ليصطفوا وراء الإمام.. الشيخ آشور (عاشور) .

فى هذه الأثناء يخفت علوب ضوء اللمبة نمره عشره وهو

يردد لنفسه :

كفى مذاكرة يا علوب.. ثلاث ساعات تكفى تماما، فقط على أن أحافظ على ذلك لأضمن أن أكون الأول .

وانفلت خـارجـاً إلى رفـقـتـه وهو يذكـر نفـسـه : اليـوم يوم السندديب(٢) .. سنلاعب نجع البـربا، سنحـاول أن نغلبـهم وإلا لحقنا العار، ولا نستطيع أن نخرج من دورنا لأسابيع معدودة، ونختبىء من ناس النجوع الأخرى .

★ ★ ★

سـألته فى أسى : وبعد يا عثمـان.. حول كامل لم نأكل غير الخـبـز بمـاء الملح والزيت، ولولا البلح وبعض اللبن الذى نمزجـه بالشاى لقتلنا الهزال .

قال الزوج : ما يقلقنى يا دارا صحة الصغير، الذى يحتـاج جسمه للغذاء. نظرته فشهقت ملتاعه لما رأت دموعه تترقرق فى مقلتيه : تبكى يا عثمان كارا ؟!

ـ على حـالنا يا دارا.. ووالله لو فىَّ صـحـة كنت اشـتـغلت أو حتى سافرت لبر مصر .

تربت على ظهـره قـائلة : وحـد الله، الذى خلقنا لن ينسـانا أبداً.. غدا بإذن الكريم سيجئ الطرد .

ومـا أن أعتلى قرص الشـمس قبة السمـاء، وأرسلت أشـعتها

إلى الأرض فالهبت حبات الرمل التى تغطى الدروب.. وضعا أقدامهما على بداية الدرب يتوكآن على بعضهما.. سارا يحفهما الأمل، والدعوات الطيبة بأن يكون ولدهما قد التحق بعمل وتذكرهما برسالة ضمنها حوالة بالمصاريف، أو أرسل طردا يعينهما ما فيه على إشعال نار يطيب إداماً اشتهيا طعمه، أو يرد لهما بعضا من العافية .

ظل الأمل يراودهما حتى لقيا عباس أفندى عند باب المكتب، فلما رآهما قال : يا عم عثمان كارا تتعب نفسك وتتعب زوجتك كل يوم .. صــدقنى أول مــا يجيء الطرد أو الخطاب ســوف أحضره لكم بنفسي. فيتبدل كل شيء، ويحل الحزن محل الأمل وتعتريهما الكآبة.

- آآآه.. كل يوم نذهب إلى المكتب ونعود خائبين .

- وماذا فى إيدينا .. ؟

- ألطف بنا يارب.. والله مـا صـار عندنا شيء.. حتى الملح والزيت لم يعد لدينا شيء منهما .

★ ★ ★

تقرفص وحده تحت شجرة الليمون الواقفة وحدها وسط الحوش متفكرا.. بدا الوجه مصفراً، شاحباً، والعينان صارا نقرتين لامعتين، والجسد غدا رفيعاً كعود بوص نبت فى الظل .

(هل سأظل هكذا.. أقف متفرجاً على ما يحدث..؟ أولول مثل الحريم.. أبكى وأندب حظنا ..؟!

طيب وماذا يمكنك فعله.. سألته نفسه

أجابها متسائلاً : ولماذا لا أعمل..؟

نعم.. لابد أن أعمل .)

إحتوته الدروب حتى وجد نفسه قبالة النهر.. جلس على حافته :

«أشتغل أى شيء.. مراكبى.. بائع.. صائد سمك.. حقيقى أن ناسنا لا يأكلونه، لكننى سألف به النجوع كلها ولن أرجع إلا بعد أن أبيع آخر سمكه ..

لماذا لا أذهب إلى الحاج دهب كرار..؟ نعم.. كان صديقاً لأبى، وهو رجل ودود، ويمتلك مركباً كبيراً، بالإضافة إلى متجره الذى يبيع فيه الحبوب .

سأذهب إليه وأعتقد إنه لن يردنى خائباً، خاصة وأن مركبته مركونه منذ أن داهم المرض الريس أحمد عبيدى.. أستطيع أن أقودها وحدى.. أفرد قلعها الأبيض الكبير، وأدير الدفة حسب الاتجاه الذى سأوجه اليه المركبه، بعد أن أملا القلع بالهواء، فتجرى المركبة خفيفة على سطح الماء تسابق الريح.. أنقل البضائع للقرى التى حولنا، وكذلك ناس النجع.. أنا أحفظ

جغرافية النهر، كما يحفظ ناس النجع طرقاته، وليطمئن العم دهب كرار، فقط على أن أقنعه بذلك.» .

★ ★ ★

كانت الشمس ترسل حممها حتى كادت تصهر الأجساد، فلم يجد الصغار غير مخالى كتبهم يحتمون بها، يضعونها فوق رؤوسهم، والرمال تغلى تحت أقدامهم فصاروا يتحنجلون كغربان، والماء ينساب رائقاً عذباً فى مجراه ..

ينفلت من بينهم ويهرول نحوه وهو يخلع ملابسه حتى صار بلبوصا، ألقى بنفسى فى الماء.. فى لحظة كان الكل يسبح حوله..

(الله.. ما أجمل برودة الماء.. سبحان الله.. الماء والنار يتجاوران.. لأغطس تحت الماء وأظل هناك أطول مدة، ولتأتنى حرارة الشمس هناك إن استطاعت) .

أحسوا بالقلق فراحوا يزعقون عليه.. يا علوووب.. يا علوووب. يأتيه صراخهم وكأنه آت من بعيد.. لوووب .

فيسبح صاعدا إلى سطح الماء .

- الحمد لله.. ظنناك..

- من يسابقنى..؟

إصطفوا جميعاً.. واحد، اتنين، تلا

كسرب سمك صغير راحوا يسبحون فى رعونه.. فى منتصف النهر اشتد الصراع بينهم، لكن علوب انهاه لصالحه .

قال صبى لآخر : تمساح صغير.. لو كان جسده ممتلئاً لسابق الكبار وتغلب عليهم .

★ ★ ★

ـ تبكين يا دارا .. ؟!

ـ والله ما أبكى إلا على الوليد الصغير.. كيف يعيش ويكبر عوده على الماء والملح ؟.

يضغط على فكيه حتى يمنع إنسيال دموعه من عينيه، لكنه أحس بفشله، فجرى إلى داره.. ألقى بنفسه على العنجريب وانخرط فى البكاء، فتجيئه زوجه مرتاعه : إيه يا ضو البيت.. مالك.. لماذا تبكى..؟

تغيم المرائى أمامكه والقلب يعتصره الألم، فظل يرنو إليها بينما النفس مثقلة باللوم .

قلقت فأعادت سؤالها :

زفر طويلا فتخففت نفسه من بعض آلامها.. قال :

وجدتنى أسير وراءهما .. لم يريانى، إذ كانت الظلمة حالكة، آآآه يا آشا .. أحسست بسكاكين تمزقنى لما سمعتهما، وعرفت ما يعانيانه وحفيدهما .. تصورى أنهم يعيشون على الماء والملح

منذ شـهور طويلة، ونحن جيـرانهم لم نحس بمعاناتهم، هؤلاء الذين لم ينسوننا أبدا لما كان ولدهم مواظباً على إرسال الطرود لهم .

ـ تتكلم عن مَن ؟

ـ مَن غيرهم كان يرسل لنا نصيبنا بمجرد أن يستلموا طرد ولدهم..؟

ـ تقصد الخالة دارا والعم كارا ..؟

ـ نعم.. المهم دى لوقت لازم نعمل لهم حاجة .

ـ حاجة ..؟

ـ أيوه .. فكره .

هب واقفا والفرحة تتقافز على صفحة وجهه، وهى تنظر إليه مندهشـة.. بسم الله الرحـمن الرحـيم.. تتـمـتم.. مـاذا حـدث للرجل.. مرة يبكى ومرة يفرح..؟ سبحان الله .

ـ إيه يا ضو البيت.. ماذا حدث لك..؟

ـ بسرعة يا آشا.. احضرى مقطفا فارغا، وهاتى كل ما عندك فى حجرة الكانون، وضعيها فى المقطف، وضعى أيضاً قطعة القماش التى اشتريتها لك أمس الأول .

ـ لماذا ..؟

ـ هيا.. لا تضيعى وقتا.. سأذهب لأصلى المغرب فى الجامع،

وعند عودتى أجدك اعددت كل شىء .

★ ★ ★

وقف علوب أمام دار عالية الجدران بقامته القصيرة لا يكاد يبين.. يقلب عينيه فى واجهته التى تزين حواف سطحه عرائس مثلثه مفرغة الوسط، ودوائر بارزة أعلى الباب، لُصقت حولها أطباق صينية.. اثنان أزرقان كبيران وثلاثة بيضاء أصغر حجماً، وعلى الجدار نقوش رسمتها أيدى الصغار.. طيور تحلق فى الفضاء، وأشجار نخيل يتدلى منها بلح متعدد الألوان، وماء تجرى على صفحته مراكب بأشرعة بيضاء.

كان الباب مواربا، فدفعه ببطء وهو ممسك به.. وجد نفسه يطل على الحوش السماوى، تتناثر حوله حجرات تفتح أبوابها عليه، تتوسطه نخلة ولود..

لم يزعق مناديا باسم أحد، فقد انشغل بأسئلة كثيرة تمور في رأسه.. كيف أبدأ، ومن أين..؟ وكيف أقنعه..؟ وماذا سيكون رد فعله..؟ ماذا سيقول..؟ هل سيقبلنى أم سيرفض الموضوع من أساسه..؟ ثم وجد نفسه يزعق:

إهمدانى أمبنا هووى (يا عم أحمداانى).

– مين..؟

أطلق سؤاله وهو ينفلت من أحد أبواب المنظرة الخمسة المطلة

على الحوش، صاح فرحا: أهلين علوب، لما رآه واقفا قرب الباب.

حالا اجيئوك عند الجامع.. انتظرنى هناك.

قال علوب متأففا: يا أخى أنا جئت لمقابلة أبيك فى موضوع مهم ولم أجيء للعب.

– ماذا.. تقابل أبى..؟ لكنه لا يقابل الصغار.. أبداً ما شفته إلا مع الكبار..

– قلت لك إننى أريده فى موضوع خاص.

أتاه صوت أبيه من الداخل متسائلاً: مَن يا حَمد..؟

– علوب يا أبى.. يقول إنه يريدك في موضوع خاص.

انفلت علوب إلى الداخل، وجد نفسه فى وسط الحوش، ثم اتجه إلى المنظرة حيث أدرك أن الشيخ يقيِّل فيها، كما يفعل كل ناس القرية، حيث تكون الحرارة فيها أقل من معدلاتها فى الحجرات الأخرى.. وجد نفسه أمام الشيخ ببنيانه الفارع المتين.. لم تنل منه سنواته السبعين، فلا الظهر تحدب ولا نفرت عروق الأطراف ولا العينان ضعفتا، وظلت الأسنان بيضاء لؤلؤية.. مصفوفة كعقد درى.. ما أن رأى علوبا حتى هتف فرحاً: أهلين ولد أخوى.. الغالى ابن الناس الغاليين.

اثلجت كلمات الترحيب صدر الصغير فرد مبتسما:

– اهلين بالعم دهب.. كيفك..؟

مسّد الشيخ رأسه وهو يضمه إليه، بينما لسانه يلهج بسؤاله عن أحوالهم.

أحس باضطراب الصبى، وتهدُج صوته سأله منزعجاً:

– إيه يا وليدى.. مالك..؟

ثم سحبه وراءه قائلاً: تعال يا وليدى.. إجلس هنا بجوارى وقلى لى ماذا حدث.. هل حدث مكروه لجدتك أو لجدك..؟ لماذا أنت حزين هكذا..؟ قل لى يا ولدى.. أرحنى.

– لا.. لا يا عمى ما فى شىء.

– صوتك يا وليدى كله حزن وبكاء.

– ...

– طيب كيف حال أبيك.. أما زالت رسائله مقطوعة عنكم..؟

تغلبت دموع الصبى على كبريائه التى حاول جاهدا كبحها.. انهمرت على خديه، فراح يهنف، بينما ظل صدره يعلو ويهبط. ارتاع الشيخ فراح يربت على كتف الصبى محاولا أن يهدىء من روعه:

لا لا يا علوب.. الرجال لا يبكون يا وليدى.. إهدأ.. إهدأ، واحك لى كل شىء.

ثم يزعق على ولده حمدون آمراً: الأبريج يا حمدون.

ثم يعــود إلى علوب: هـاه.. ســتــحكى لى كل شىء.. أليس كذلك..؟

قال علوب: أريد أن أعمل يا عمى.. لقد جئتك الآن لتلحقنى بأى عمل عندك.

قال مندهشاً: مـاذا.. تعمل..؟! لكنك مـازلت صـغيراً يا ولدى على العمل.

– لم أعـد صـغـيـراً.. أنا أعى كل مـا يدور حـولى، فـأبى لم يرسل لنا مليماً منذ سنة كاملة، والدار ما عاد فيها شىء.. حتى الزيت الذى كـانت تخلطه جـدتى بالماء والملح نفـد، وجـدى شـيخ كبير لا يقدر على عمل شىء وكذلك جدتى، فماذا أنتظر..؟

يهز الشيخ رأسه فى حزن بالغ وهو يمسد شعر الصبى الذى انطلق لسـانه من عنانه: الحـالة يا عـمى الحـاج لم تعـد تحـتمل، وإحساس بالذنب يتضـاعف وأنااكتفى بمشاهـدة ما يحدث دون أن أفعل شيئاً.

(آآآه يا دهب يا كـرار.. ربنا أعطاك من وسـع، صـرت أغنى مَن فى النجع، وتجـارتك تكبـر وتنمـو، ومـالك آخـذ فـى الزيادة، لكنك نسيت حق ناسك.. لم يشغل بالك يومـا حال أحد منهم.. لم تسأل نفسك ماذا يأكلون وكيف يعيشون.. غافل عن كل شىء إلا حصر أموالك.. كم كسبت وكم خسرت، ثم تروح فى سابع نومه

بعد أن تأتى زوجتك كل ليلة.. يا عيب الشوم)

- هاه.. مـاذا قلت يا عمى الحاج دهب.. لازم توافق.. لازم اشتغل وإلا فذنب جدى وجدتى سيكون فى رقبتك قبل رقبتى. أنا أعرف أسبح زين.. شغلنى مراكبى، أو بائع فى دكانك أو حتى راعى غنم.

- الصبر يا وليدى ودعنى أسـألك عن مستقبلك ودراستك أولا.

- أتعلم ونحن نعيش هذا الضنك.. كيف؟! وعموما أنا فكرت أذاكر ليلاً.. لن أترك الفرصة تفوتنى.. سأذاكر مع أى زميل.

- بارك الله فيك يا ولدى، والله إنك فعلا كبير بعقلك وتفكيرك، لكن صدقنى أنا يهمنى مستقبلك، ويهمنى إنك تتعلم، وما يرضينى تشتغل وأنت فى مثل هذا السن.

وبعد فترة صمت ثقيلة أضاف الشيخ قائلاً:

اسمعنى زين يا علوب.. سأعطيكم شهريا المبلغ الذى كان يرسله أبوك كسلفه، ولما تصلكم منه النقود تردونها لى.

- إن أبى لن يرسل نقودا - على الأقل - فى الوقت القريب، وكما قلت لك سوف أذاكر ليلاً وأدخل الامتحان آخر العام، وعشان خاطر جدتى وجدى تلحقنى بأى عمل عندك.

اغرورقت عينا الشيخ بالدمع، فأبعدهما عن عينى الصبى،

وران بينهما الصمت.

* * *

هجم المساء وعمت دكنة الظلمة أرجاء النجع، فتلفع بـه ضو البيت وانسل خارجا من داره، محتضناً مقطفاً ملئ إلى منتصفه بحبات البطاطس ونصف قمع سكر وحفنة شاى وبعض الخبز الجاف وقطعة قماش باتستا وأقل من رطلين بصل.. لف حوله كم جلبابه حتى لا يبين.. تلفت يُمنه ويُسره قبل أن ينطلق إلى دار سليمان آيتج (عتيق)، اطمأن لخلو الدروب فراح يركض بين الدور المهجورة حتى بلغ مقصده..

طرق البـاب طرقـات مـضطربه وهو ينادى باسم صـاحبـه بصوت خافت كالهمس.. سِلِيَما.. سِليما (سليمان)

مَن.. ضو البيت..؟!!

بدا الرجل منزعجا لما رأى صاحبه يقف أمامه، محتضناً شيئاً لا يتبينه.. سأله منزعجا:

ماذا حدث يا مصيبة..؟ ألم نكن معاً منذ قليل.. ماذا حدث إذن..؟!

- لا شىء.. فقط إهدأ لتفهمنى.

ثم أزاحه ودلف داخلاً المضيفة وهو يقول:

أولا هات مـــا عندك من أى شىء يصلح أن نكمل به هذا

الطرد.

نظره سليمان مندهشاً ثم سأله: ماذا.. هل سترسل طرداً من هنا لناسنا في بر مصر..؟!

- يا سلام يا أخي.. ما هذه النباهه..؟!

سألت عيناه: إذن لمن سترسله..؟

- للشيخ عثمان كاره.

- نعم...؟!

- سأشرح لك كل شيء فقط نبه على جماعتك أن يحضروا أي شيء عندك في البيت.. عدس، فاصوليا، سكر، برتقال، المهم أن نكمل هذا الطرد.

امتلأ المقطف عن آخره، وجاءت زوجة سليمان عتيق بالميبر والخيط وحاكت قطعة القماش بفتحة المقطف، ونِدت قطعة القماش بالماء، وكتب ضو البيت عليه بالقلم الكوبيا اسم القرية والنجع ثم اسم المرسل إليه الشيخ عثمان كارا، وفي دكنة الليل الدامس كانت الركوبة تضرب المدق بحوافرها وقد امتطاها ضو البيت، محتضناً بيسراه الطرد وبيمينه يهش على الدابة، يوجهها نحو مكتب البريد، وأمام أبوابه المغلقة ألقى الطرد، ثم عاد أدراجه وهو يضع باطن يمينه على صدره، علّه يهدئ من شدة خفقات قلبه الفرح..

الهوامش

(١) مشروب مُز.. مزيج من عصير الليمون ورقائق خبز مخمر يُشرب مثلجاً .

(٢) إحدى الألعاب النوبية التى يمسك فيها اللاعب أصابع قدمه اليمنى بيده اليسرى ويحاول أن يوقع بغيره وهو أيضاً فى نفس الوضع .

المحتوى

صدر للمؤلف

- الهاموش – مجموعة قصصية ١٩٨٥– على نفقة الكاتب (نفدت)
- أنا الموقع أدناه – مجموعة قصصية ١٩٨٩– المركز القومى للفنون والداب (نفدت)
- بين النهر والجبل (رواية ١٩٩١– الهيئة العامة للكتاب
- خور رحمة (طبعة ثا نية) مجموعة قصصية ١٩٩٤– أصوات أدبية – الهيئة العامة لقصور الثقافة
- عينان زرقاوان – مجموعة قصصية ١٩٩٥ – الهيئة العامة للكتاب
- دوامات الشمال – رواية ١٩٩٩– الهيئة العامة للكتاب

* كتب للأطفال :
- جدتى لحن جميل – الهيئة المصرية العامة للكتاب
- القرش صاحب الكرش – الهيئة المصرية العامة للكتاب
- الحطاب الطماع – الهيئة المصرية العامة للكتاب
- أرنب ولا كل الأرانب – الهيئة المصرية العامة للكتاب

* تحت الطبع :
- كلاكيت آخر مرة – مجموعة قصصية
- كأنه حدث بالأمس – كأنه يحدث الآن – رواية
- بينناالوطن – مجموعة قصصية

شركة الأمل للطباعة والنشر